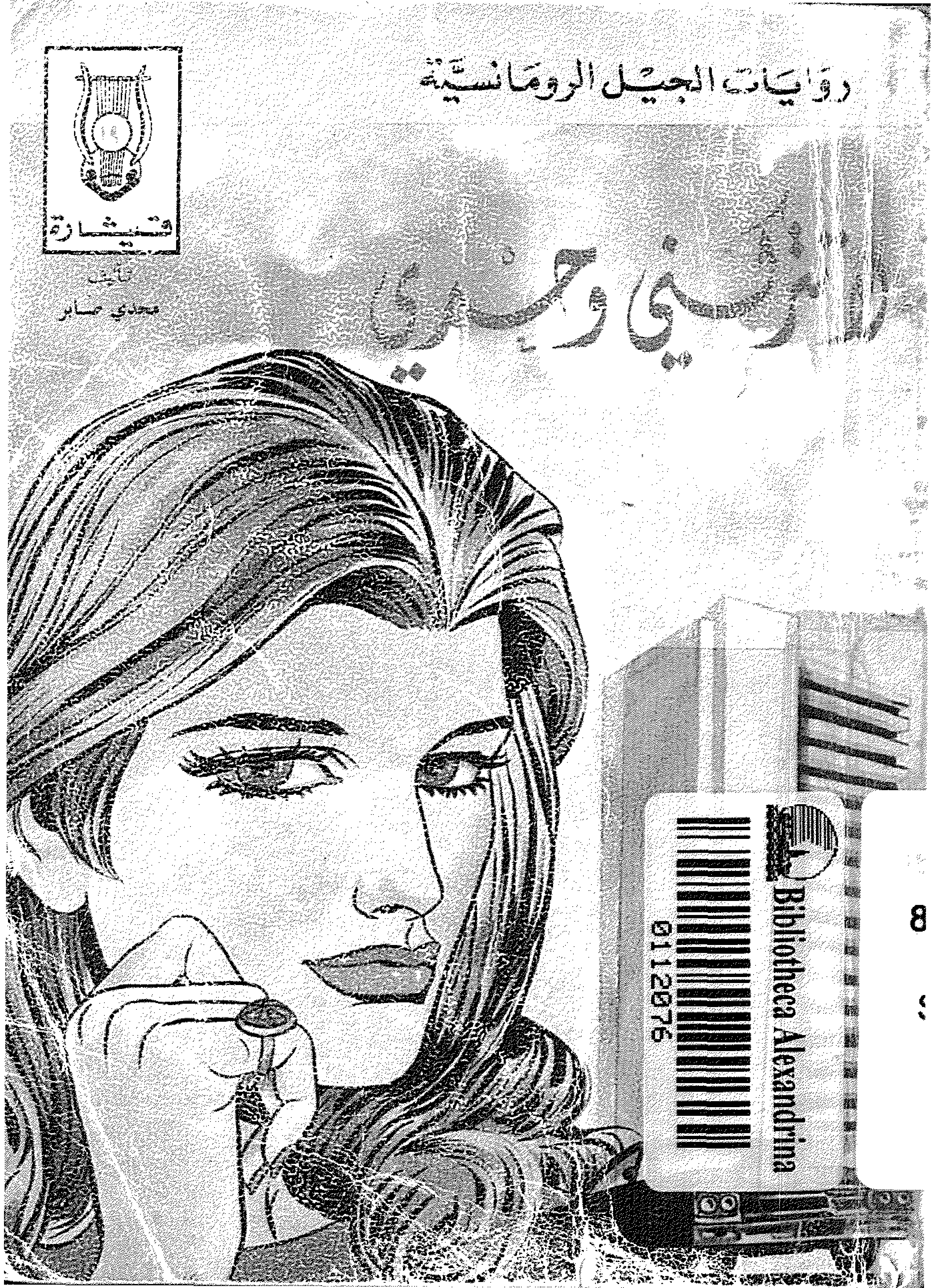

روايات الجيل الرومانسية
قيثارة
تأليف
مجدي صابر

لا تتركيني وحدي



روايات الجيل الرومانسيّة ١٩

لا تتركني وحدي

تأليف

مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

احتفال

تلألأت صالة الفيلا بأنوار قوية من الثريات العديدة الفاخرة المدلاة من السقف . . وتناثر المدعوون من رجال الأعمال وعلية القوم ممن يبدو عليهم الثراء البالغ في كل الأركان ، يشربون العصائر المثلجة وهم في أبهى الحلل . أما السيدات فكنَّ يتحركن في رشاقة وأناقة بالغة ، تلمع فوق أجيادهن ومعاصمهن الحلى الماسية والذهبية . . وتفتر ثغورهن عن ابتسامات مضيئة .

وفوق المائدة العريضة في منتصف الصالة ارتصت علب الحلويات وأطباق الفاكهة تتوسطها تورتة كبيرة رُصفت في منتصفها خمس وعشرون شمعة صغيرة . . وعلى حوافها كُتب بحروف من الشيكولاتة: عيد ميلاد سعيد يا «مريم» .

والتفت أحد المدعوين من رجال الأعمال الى زوجته قائلا

وهو يتأمل أبهاء المكان الفخم حوله: إن «مريم الطنطاوي» محظوظة حقا، فقد وُلدت وفي فمها ملعقة ذهبية كما يقولون.. وورثت عن أبيها شركة شهيرة للمقاولات بالإضافة الى بعض الملايين، وهذه الفيلا الفاخرة.. وهي تدير كل أعمالها بنفسها برغم خبرتها القليلة في مجال الإنشاءات.. ولكنها تعرف كيف تستمتع بحياتها جيدا وكيف تنفق الملايين.

فتساءلت الزوجة في همس: ولماذا لم تتزوج حتى الآن؟

أجابها زوجها في بعض الحسد: تقول «مريم» إنها لم تجد حتى الآن الرجل الذي يستحق أن يصير زوجها.. وإنها ربما تقضي عمرها كله دون أن تجده.

غمغمت الزوجة في بعض السخط: يا لها من مغرورة!

قال الزوج: إنها قد تكون مغرورة حقا.. ولكنها في ذات الوقت بارعة الجمال كأنها «فينوس».. وحتى صوتها له رنة ساحرة تسلب العقل.. فهي نموذج مثالي للجمال بحق.. ولكنها في الوقت نفسه نموذج لقوة الإرادة والشخصية، وما تريده تفعله مهما كانت الخسائر، ودون أن تطرف لها عين.

قالت الزوجة في بعض القلق: أرجو أن توافق على منحنا

بعض المقاولات الصغيرة في مشروع برجها الجديد في «المعادي».

همس الزوج: إن أكثر من عشرة مقاولين يتنافسون للحصول على هذه المقاولات، وهم جميعا حاضرون هذا الحفل.. فهذا المشروع الذي قامت «مريم» بإنشائه ضخم جدا يكلف أكثر من عشرين مليون جنيه.. وسنكون محظوظين حقا لو عهدت إلينا ببعض من مقاولات تركيب الزجاج والأبواب والنوافذ له.. وقد تحدثت مع مدير أعمالها «رشيد بك» في ذلك فوعدني خيرا.. وإن كنت أظن أنه أعطى نفس الوعد للآخرين!!

وفجأة ساد سكون عميق وتعلقت الأبصار بأعلى السلم الداخلي في لهفة.. وكتم الحاضرون شهقة إعجاب عندما بدت «مريم» بأعلى السلم.

كانت فاتنة.. ساحرة.. عيناها أكثر خضرة من تلك الزمردة البديعة في خاتم أصبعها.. وشعرها الذهبي المنسدل على كتفيها في نعومة بدا كما لو كان هالة شمس تحيط بوجهها الفاتن.. وعنقها يتلألأ بعقد من الماس الثمين النادر.

وكان فستانها الحريري الأبيض الذي رصعت فيه حبات من

الياقوت الملتهب يضيق على خصرها وينسدل في تموجات بديعة ليخفي رشاقة قوامها. وهي تتحرك في خفة كأنها عصفور يطير.

كتم الحاضرون شهقاتهم وهم يتابعونها بأبصارهم.. وخطت «مريم» في رشاقة هابطة نحو مدعويها.. وبدا كأن الضيوف قد مسّتهم يد ساحر فراحوا يتطلعون الى تلك الفاتنة وقد أخرس جمالها ألسنتهم وشل حركتهم.

وابتلعت الزوجة لعابها وقالت بعينين متسعتين عن آخرهما: لم أكن أظن أنها بمثل هذا الجمال والسحر.. إن مثل هذا الجمال كفيل بأن يُكسب صاحبته غرورا لا حد له.

فغمغم زوجها مفتونا: بل هي ساحرة حقا.. فعيني لم تر أجمل منها في حياتي.

وأفاق الحاضرون وتعالى تصفيقهم.. والتهبت أكفهم وهم يستقبلون «مريم طنطاوي».

وأقبلت «مريم» نحوهم.. كأميرة.. أو ملكة متوجة.. وفوق شفتيها الرقيقتين المخضبتين بلون الكريز الشهي ابتسامة فاتنة.. ورأسها مرفوع كأنه يمس السحاب. وأقبل الرجال يتحلقون حولها في إعجاب بالغ.. وهمس أكثر من واحد في

صوت مبحوح: عيد ميلاد سعيد يا «مريم» هانم.

فرمتهم «مريم» بنظرة باسمة تشع ضياء أسكرت البعض.

نظرة نجمة تطل من عليائها على بعض من توابعها.. كأنها شمس وهم كواكب يستمدون منها ضياءهم.. فإن غابت عنهم أطبق عليهم ليل طويل مقفر.

أرضهم قاحلة مظلمة باردة لولاها.. وجاذبيتها لا تتيح لهم أي قدر من الإرادة.

كانت نظرتها تحمل أكبر قدر من التعالي لمن حولها.. تعرف أن أكثر من نصفهم يشتهي الإبحار في عالمها والوصول الى شواطئها.. كل منهم يتمنى أن يصبح «سندباد» الذي عثر على جزيرة اللآلئ والمرجان.. ولكن كم من البحارة المهرة غرقوا في بحور عينيها وابتلعتهم أمواجها دون أن تعبأ بصرخاتهم وتوسلاتهم.

حدق فيها الحاضرون في تلهف وانبهار.. كأن عينيها البوصلة التي يتمنون أن ترشدهم الى طريق السعادة.. حتى المتزوجون منهم كانوا على استعداد لأن يقبّلوا أطراف أصابعها.. وأن تكون هي الزوجة الوحيدة في حياتهم بإشارة واحدة منها.

كانوا يهيمون بها. . لجمالها. . ومالها. . ونفوذها. دون أن يعرفوا أن ذلك الفارس الذي تحلم به كان من عالم آخر. . عالم لا ينتمي الى هؤلاء القوم الذين انحنت رؤوسهم لهفة وإذلالاً. . كانت «مريم» تريد فارساً ذا رأس مرفوعة في كبرياء وشموخ. . لا صاحب هامة ذليلة مطأطأة.

والتفتت الى مديرة المنزل ومربيتها تسألها في صوت عذب: ألم يأت «رشيد» بعد من مشروع «برج المعادي»؟

فقالت المربية العجوز البدينة الطيبة: لعل بعض الأعمال أخرته هناك.

فتحركت أصابع «مريم» في بعض الحنق الذي عكسه قليل من الكدر في عينيها الفيروزيتين، كأنما تكسر زبد عاصف على شواطئ العينين. وقالت صاحبتهما: هذا الأحمق. . يعرف أنني اليوم أحتفل بعيد ميلادي، وبرغم ذلك تشغله أشياء أخرى عن أن يكون في خدمتي هذه الليلة. . لسوف يكون عقابه عسيراً.

كان المال يمنحها القوة، وكانت تعرف ذلك جيدا. . فبيدها كان المنح أو المنع ولا يهمها بعد ذلك ما يقوله حتى موظفو شركتها عن قسوتها وجمود مشاعرها.

وأشارت بطرف أصابعها اللوزية المنمقة الى مدعويها قائلة في صوت ساحر: فلنطفئ الشموع.

فتطوع أكثر من عشرة من الحاضرين لإيقاد شموع التورتة بولاعات ذهبية فاخرة كأنهم يخوضون صراعا يتقرر فيه مصيرهم. . وكان لهب شعلاتهم الصغيرة أقل توقدا وحرارة من لهب قلوبهم.

وتحلّق الحاضرون حول التورتة الكبيرة. . وأطفأت يد نور الصالة فتراقص لهب الشموع في قلب الظلام. . كأنها نار اللظى في قلب عاشق أضناه الهوى. .

وتصاعدت الأصوات المنغمة تتمنى عيد ميلاد سعيداً وحياة مديدة لجميلة الجميلات. . ثم تسابقت الأفواه لإطفاء الشموع. .

وأضيئت أنوار الصالة مرة أخرى وسط التصفيق الحاد. .

وتقدم الحاضرون بهداياهم. . كانت كلها ثمينة فاخرة تساوي الكثير. . وقد وقفت «مريم» تتقبلها في تعالٍ كأنها ملكة تتلقى عطايا رعاياها.

عاشت عمرها كله تأخذ ولا تعطي. . تتلقى ولا تمنح. .

منذ طفولتها وهي ملكة متوجة. . رعاياها هم كل من

يجوسون أمام عينيها وأسوار مملكتها.

لا أحد يوما رفض لها طلبا. . ولا جرؤ انسان أن يقول أمامها كلمة «لا».

لم يحدث أن اشتهت شيئا في حياتها. . وحُرمت منه. . عوّدها والدها أن تأمر فتطاع. . وبعد وفاته ترك لها من المال ما يعطيها حرية الأمر، فيطيعها الآخرون دون مناقشة.

أخيراً قالت في رقة لمدعويها: خذوا راحتكم. . وكلوا واشربوا.

والى الخلف كانت ثمة مائدة أكبر رصت فوقها أصناف عديدة من الأطعمة الشهية اندفع اليها البعض، على حين كان البعض الآخر لا يزالون مأخوذين الى سيور جاذبية صاحبة الحفل يستحيل عليهم أن يفلتوا منها. . كأنهم فراشات ملونة تحوم حول شعلة لهب. . يتمنون لو أن نهايتهم كانت في أتونها.

مرة أخرى التفتت الى مربيتها قائلة في غضب: هذا الغبي الأحمق «رشيد». . سوف أرفده لا محالة جزاء له على تأخره.

فقالت المربية في إشفاق: لا تدعي الغضب يسيطر عليك

يا ابنتي . . فمن يدري ما الذي أخره .

فأحست «مريم» ببعض غضبها ينطفئ . .

كانت الوحيدة التي يكن لها قلبها مكانة خاصة هي مربيتها . . فمنذ طفولتها لم تع عيناها غيرها . . ماتت أمها وهي طفلة لا تدري من أمرها شيئا .

ولم يتزوج أبوها إشفاقا عليها . . وعوضت مربيتها حنان أمها . . كانت وهي طفلة لا تأكل إلا من يدها . . ولا تنام إلا فوق ساقها . . ولا أحد كان قادرا على السيطرة على ثورتها وانفعالها غيرها هي .

ومدت «مريم» يدها في حركة عصبية لتلتقط كأس عصير من أحد الخدام . ولكن قدم الخادم العجوز تعثرت في السجادة الوثيرة ، فاختل توازنه وسقطت صينية الكؤوس من يده فوق السجادة في دوي مكتوم ، فتناثر رذاذ العصير فوق فستان «مريم» الحريري ، واشتعل في عينيها غضب جارف فأمسكت الخادم العجوز من ياقة سترته صارخة:أيها الأعمى الغبي . . انظر ماذا فعلت؟

فقال العجوز مستعطفاً والدموع في عينيه: سامحيني . فقد داهمتني نوبة قلبية .

ولكنها واصلت تعنيفها في غضب أشد: لا يهمني ما أصابك . . إن كنت عاجزا عن العمل فلماذا تعمل أيها الغبي . . انظر . . لقد أفسدت السجادة وفستاني الثمين .

وهوت كفها في صفعة عنيفة مدوية فوق صدغ الخادم العجوز . . فترنح الخادم وتساند على أقرب مقعد حتى لا يسقط على الأرض .

وجمدت نظرات الحاضرين من المفاجأة .

وهتفت المربية العجوز في غضب لـ «مريم»: كيف تعاملينه بمثل هذه الطريقة . . لقد خدم والدك عشرين عاما بأمانة وإخلاص . . وما فعله كان بسبب مرضه .

ولكن «مريم» قست ملامحها كالصخر ، وقالت: ليذهب الى مستشفى ما دام مريضا . . فليس منزلي ملجأ للعجزة .

وأشارت بطرف أصبعها في وجه العجوز الذي راح يحدق فيها بصمت وانكسار وعينين دامعتين ، وواصلت «مريم» غاضبة: غادر هذا المنزل حالا . . فلم يعد لك مكان هنا . . ولن تقبض مليما واحدا كراتب أو مكافأة نهاية خدمة ، فما أفسدته بغبائك لا يمكنك أن تدفع ثمنه ولو عشت عشر مرات .

غمغم الخادم العجوز في همس أقرب الى البكاء: سامحك الله يا ابنتي.

فدفعته «مريم» بغضب أشد صارخة: لست ابنتك أيها الخادم الوضيع.. هيا غادر منزلي وإلا جعلتهم يلقون بك خارجا.

فتحرك الخادم في ذلة نحو باب الفيلا..

والتفتت «مريم» في نعومة نحو الحاضرين قائلة: لم يحدث شيء. واصلوا تمتعكم بالحفل.

فعاد الحاضرون الى طعامهم وشرابهم وهم يتهامسون.. كان ما حدث مفاجأة للبعض.. أما البعض الآخر ممن يعرفون «مريم الطنطاوي» جيدا فلم يدهشهم ما فعلته بالخادم.. بل قالوا إنها كانت رحيمة به.. وإنها في ظروف أخرى كان من الممكن أن ترسله الى السجن!!

وفجأة اندفع «رشيد» الى المكان..

كان بصره زائغا وملابسه الأنيقة معفرة متربة ويبدو عليه ذهول أقرب الى الصدمة..

واتجه الى «مريم» وهو يجرجر ساقيه كأنه لايقدر على الوقوف، وما أن رأته «مريم» حتى عاد غضبها يتقد ثانية وهمست تقول له في حنق: أيها الأحمق الفاشل.. كيف

جرؤت على التأخر كل هذا الوقت وأنت تعرف أنني في حاجة إليك لاستقبال ضيوفي في يوم عيد ميلادي؟

فابتلع «رشيد» لعابه في توتر وشفتاه ترتعدان كأنه لا يجد ما يقوله. . أو كأنه يخشى إخبار سيدته بالأنباء التي جاء يحملها إليها. . فصاحت به «مريم» في غضب أشد: لماذا لا تنطق. . هل خرست. . لسوف أعاقبك بحسم نصف راتبك و. .

ولكن «رشيد» قاطعها بشفتين يابستين وهمس يقول في صوت مبحوح: «برج المعادي».

ولم يكمل. . كانت المرة الأولى في حياته التي يقاطعها أثناء حديثها. . وكانت لهجته مليئة بالهلع والرعب فأصابتها دهشة وهي تسأله: ما باله «برج المعادي»؟

فأجابها وهو ينهار فوق أقرب مقعد ويدفن وجهه بين كفيه: لقد انهار منذ ساعة واحدة.

تحجرت نظرات «مريم». . أحست بدوار يعصف بها وبأن كل المرئيات تتراقص حولها. . لم يستوعب عقلها للحظة ما قاله مدير أعمالها. . شعرت أنها تسقط في دوامة وأن كابوسا يعصف بها. . خيل لها أن عيون المدعوين المحدقة بها صارت عيون ذئاب توشك على التهامها، وأنيابها يسيل منها لعاب،

ولكنها هزت رأسها كأنها تطرد ذلك الخاطر المزعج.

وفي صوت متحشرج غمغمت تقول ذاهلة كأنها تأبى أن تصدق ما سمعته: ماذا قلت؟

قال «رشيد» في صوت أقرب الى الانتحاب: لقد أخبرك مهندسو الشركة منذ البداية أن أرض المشروع رملية ولا تصلح لبناء برج من ثلاثين طابقا فوقها، وأنه تلزمها معالجات خاصة ومكلفة ولكنك أصررت على البناء على مسؤوليتك دون معالجة التربة و . .

قاطعته «مريم» صارخة: مستحيل أن يكون البرج قد انهار . . مستحيل . . لقد وضعت فيه كل مالي . . إنه لا يمكن أن ينهار بمثل تلك الطريقة.

ولكن «رشيد» عاد يخفي وجهه بين كفيه وقال وكأنه موشك على البكاء: ليت المصيبة اقتصرت على انهيار البرج . . ولكن المصيبة الأكبر أن أحد المهندسين كان بالمشروع وقت انهياره، وقد دفن تحت الأنقاض.

علا صوت «مريم» في صراخ: فليذهب هذا المهندس أو غيره الى الجحيم . . أنا لا يهمني الآن غير البرج الذي انهار وضاعت فيه كل أموالي.

فعاد «رشيد» يقول في همس مؤلم:
ـ أنت لا تفهمين . . إنها جريمة قتل يعاقب عليها القانون .
صرخت «مريم» وكل جزء فيها ينتفض بالغضب:
ـ فليذهب القانون الى الجحيم أيضا .
كانت تبدو كالمجنونة . . عيناها تشعان لهبا ونارا ووجهها قد تقلص بغضب لا يرحم . . وطالعتها العيون المصدومة التي فاجأها النبأ حولها . . كانت كعيون أبقار غبية محترقة في بلادة . . أو كعيون أضناها الانتظار لكي تظهر سخريتها وشماتتها .
طوال عمرها لم تلمح نظرات الشفقة في عيون الآخرين نحوها . . وأصابتها تلك النظرة بهيستريا . . كان الجميع واقفين لينقلوا إليها تعازيهم . .
كأنها قد ماتت وهؤلاء هم المشيعون . .
وصرخت فيهم وغضبها يتصاعد الى حافة الجنون: اغربوا عن وجهي . . غادروا هذا المكان حالا . . لا أريد أن أرى أحدا منكم .
فتدافع الحاضرون يغادرون المكان وأنفاسهم معلقة في حلوقهم . . وامتدت يدا «مريم» الى كوم الهدايا بجوارها

وراحت تقذفها تجاه المغادرين صارخة في وحشية وكراهية: خذوا هداياكم معكم أيها الجبناء . . خذوها واذهبوا الى الجحيم .

وخلا المكان . . وأحست مريم أنها توشك على الاختناق برغم رحابة المكان . . راحت تدور في الفراغ وهي تحدث نفسها: مستحيل أن يكون قد ضاع كل شيء مني في غمضة عين . . إنني حتى لم أسدد ما استدنته من البنوك لإكمال بناء البرج . . مستحيل أن تكون النهاية بمثل تلك الطريقة فأفقد كل مالي ويضيع كل شيء .

اقتربت منها مربيتها . . كانت في عينيها الدموع . . وربتت مشفقة فوق كتف «مريم» قائلة . . لا تفعلي ذلك بنفسك يا ابنتي . . لكل مشكلة حل .

ولكن «مريم» دفعتها في عنف وحشي صائحة: ابتعدي عني . . لا أريد شفقة من أحد .

وعلا صوتها في صراخ حاد: أنتم جميعا تكرهونني . . كنت أعرف ذلك من زمن . . تكرهونني وتخشونني . . كنتم تخشون مالي ووظائفكم . . والآن لم يعد هناك ما تخشونه . فهيا اظهروا عواطفكم الحقيقية نحوي . . أظهروا

كراهيتكم وحقدكم علي . . فلم تعد هناك وظائف تخشون فقدها ولا مال يخيفكم فقده .

إحتبست الدموع في عيني المربية وبدا كأنها تلقت لطمة لم تتوقعها أبدا . . ونهض «رشيد» واقفا وألقى نظرة أخيرة الى «مريم» ثم قال: غدا صباحا سأتقدم باستقالتي لك .

فصرخت فيه: وغد . . حقير . . جبان . .

كانت تبدو كنمرة مهتاجة . . كشخص يدفعه الجنون لأن يفعل أي شيء . .

وأمسكت بفازة ثمينة طوحتها صوبه ولولا أن تفاداها لهشمت رأسه . . فأسرع مهرولا في ذعر وهو يحسب نفسه غبيا لأنه جاءها لإبلاغها الكارثة بنفسه .

وانهارت «مريم» فوق أقرب مقعد . . كان بداخلها شعور كأن العالم كله قد تخلى عنها . إنها لم تشعر بذلك لحظة وفاة أبيها . . لم تشعر بالخوف أو الاغتراب ، فقد كان ما تركه لها من مال يمنحها القوة . . وأغمضت عينيها بين كفيها . . ثم رفعت عينيها الفيروزيتين الساحرتين . . كانت العينان غارقتين في الدموع . . وشاهدت وسط غمامة ضبابية عددا من رجال الشرطة يحيطون بها وهم يرمقونها في صرامة .

وارتعدت شفتاها . . وقبل أن تنطق بشيء قال أكبر الضباط رتبة في صوت غاضب: معنا أمر بالقبض عليك من النائب العام .

وانفجرت «مريم» في بكاء مرير . . لأول مرة في حياتها كانت تبكي بعد وفاة أبيها . .

وشعرت أنها ضعيفة . . ضعيفة جدا . . كريشة في مهب ريح عاصفة .

بيع في المزاد العلني

جلست أمام النائب العام منهارة شبه ذاهلة . . قال لها مشفقا: أرجوك تماسكي . . هل لديك محام؟

أجابته في لهجة ساخرة:

ـ الجميع تخلوا عني عندما أيقنوا من ضياع مالي .

راقبها النائب العام في صمت لحظة قبل أن يقول: هل تدركين التهمة الموجهة إليك؟

هزت رأسها في مرارة وهي تقول: نعم . . لقد مات أحد المهندسين تحت أنقاض البرج .

ولكن النائب العام هز رأسه نافيا وقال:

ـ لا لحسن حظك . . لقد تمكنت قوات الإنقاذ التي هرعت الى المكان من إخراجه حيا من تحت الأنقاض . . ولكن المؤسف أنه فقد ساقه .

أومأت برأسها وقد أدركت أنها فقدت كل شيء وقالت:

ـ لا يغير هذا كثيرا من الأمر. . فقد ضاع كل شيء.

قلب النائب العام بعض أوراق أمامه وقال: أنت صاحبة شركة المقاولات التي نفذت مشروع «برج المعادي». . فهل لديك شهادة متخصصة من الهندسة كاستشارية؟

عضت شفتيها قهرا. .

كان التذكر أكثر ما يجرحها. . وكانت تود أن تنسى رسوبها ثلاث مرات في العام الأخير قبل أن تحصل على شهادتها بواسطة مالها. . غمغمت تقول محاولة أن تستجمع شيئا من شتاتها: أنا حاصلة على بكالوريس الهندسة العام الماضي.

قطب النائب العام ما بين حاجبيه قائلا:

ـ ولكن أمامي أوراق موقعة منك باعتبارك خبيرة استشارية لبناء البرج على مسؤوليتك. . والمفروض أن مثل هذه المسؤولية لا يتحملها إلا مهندس خبير مضت سنوات طويلة على اشتغاله بالهندسة.

ارتعدت شفتا «مريم» وقالت في حنق وغضب:

ـ ما أسرع ما تحرك مهندسو شركتي من أجل إدخالي

السجن بتقديمهم هذه الأوراق إليكم مع المعلومات اللازمة.
تأملها النائب العام لحظة في صمت ثم قال:
ـ إن الجميع ناقمون عليك دون شك.. وقد تقدموا ببلاغ ضدك يتهمونك بسوء الإدارة وبمسؤوليتك عن انهيار «برج المعادي» وإصابة زميلهم.
قالت ساخرة: كانوا جميعا يتسابقون لإرضائي في الماضي وقلوبهم ترتجف هلعا، وكانت مصائر الكثيرين منهم معلقة في يدي.
أجابها النائب العام دون أي إحساس بالشفقة تجاهها: لا تلوميهم فيبدو أنه قد نالهم منك الكثير.. وهم قد ردوا لك اللطمة في الوقت المناسب تماما.
ومرت لحظة صمت أخرى والنائب العام يقلب بعض الأوراق أمامه ثم قال: أمامي الآن طلب من أحد البنوك الذي اقترضت منه خمسة ملايين جنيه لاستكمال بناء برجك.. وكان الضمان هو البرج بالطبع والأرض المقام عليها والتي تساوي ثلاثة ملايين فيتبقى عليك دين قدره مليونا جنيه.
قالت منهمكة: ما أسرع ما يتحرك الدائنون.
أجابها النائب العام في قسوة: لقد تحرك البنك بناء على

إخبارية من موظفي شركتك يطلبون منه سرعة التحرك قبل أن تقومي ببيع ما تملكين وتغادري البلاد. . وقد تلقى البنك هذه الإخبارية أمس مساء. . بعد انهيار البرج مباشرة.

عضت «مريم» على شفتيها وعيناها تنطقان بالشرر وغمغمت مرتعدة: هؤلاء الخونة. . كان يجب طردهم جميعا من الشركة.

أشعل النائب العام سيجارا وقال:

ـ أنا مضطر لوضع كل أملاكك الآن تحت التحفظ لحين بيعها لصالح البنك في القريب لسد المليوني جنيه. . شركتك وفيلتك وسيارتك وأموالك السائلة. .

وفي لهجة عميقة أضاف: وبالطبع مجوهراتك وحتى ملابسك الثمينة المحلاة بالمجوهرات. . وأي تصرف فيها سيعرضك للمسؤولية الجنائية. . وبالطبع فأنت لست في حاجة لأن أخبرك أن البنك سيستولي على أرض المشروع ويبيعها ليحصل على بقية ديونه.

نكست «مريم» رأسها ولم تنطق. . كانت لا تزال تشعر أنها في كابوس وأن قوة قاهرة قد أنشبت مخالبها في قلبها، وكان يراودها أمل خفي في أنها ستفيق منه في لحظة ما

لتكتشف أن كل ما تراه حولها كان وهما . . وأنه من المستحيل أن تكون تلك هي النهاية .

عاد النائب العام يقول: يمكنك العودة الى فيلتك والإقامة فيها لحين تحديد موعد جلسة بيعها في المزاد العلني . . ولكني أحذرك بالطبع من محاولة إخفاء أي من أملاكك . . وبالطبع ستكون هناك قضية ضدك بسبب ما حدث للمهندس المصاب .

ورمقها لحظة كأنه مشفق عليها مما قاله ثم أضاف:

والآن سأفرج عنك بضمان إقامتك .

نهضت متخاذلة . . ودوي هائل وطنين في رأسها . .

تحركت ساقاها تقودانها الى الخارج . . ولمعت أنوار كاميرات الصحفيين وهم يلتقطون لها الصور ، فصار من المؤكد أن جرائد الغد ستحمل كل أخبار الفضيحة . . بعد أن كانت الجرائد لا تحمل غير أخبار مشروعاتها وحفلاتها . . ستزيد من عدد الشامتين والساخرين والناقمين . .

كأن العالم كله قد تحالف ضدها في هذه اللحظة .

عاودها إحساسها بالغضب من كل شيء حولها واختطفت إحدى الكاميرات المصوبة إليها من صاحبها وهشمتها فوق الأرض صارخة: ابتعدوا عني أيها الأغبياء .

سارعت الكاميرات الأخرى بالتقاط المشهد المثير لتتضاعف الفضيحة . . فهرولت تغادر المكان وهي لا تكاد ترى أمامها .

وقادت سيارتها الفاخرة في طريق العودة الى فيلتها . .

لم تعد الفيلا ملكا لها . . ولا سيارتها . . ولا أي شيء آخر .

كان الأمر يبدو غريبا عليها . . لم يستوعبه عقلها حتى تلك اللحظة . . كأنها كانت محارة بهيجة مليئة باللؤلؤ النادر الثمين ، فلما انتزعوه منها صارت مجرد محارة خالية صدئة .

لم تعد تملك شيئا . . ولا حتى ذلك الخاتم الذهبي في أصبعها . . ولا حتى السيارة التي تقودها . .

وأصابها ذلك الخاطر بجنون . . وغمغمت من بين أسنانها: لن يأخذوا شيئا مني . . سأمنحهم كل شيء حطاما وحتى جثتي لن يمكنهم التعرف عليها .

وقادت السيارة بأقصى سرعتها نحو حائط قريب وصدمته في عنف بالغ وهي تتمنى لنفسها الموت .

وتهشمت مقدمة السيارة الفاخرة وتحطمت تماما . . ولم تصب «مريم» بغير خدوش قليلة . .

كأن القدر لا يزال يتحداها . . ويدخر لها معاناة أقسى

وأشد. . ولهذا أبقاها على قيد الحياة. .

ولكنها استعادت جزءا من قوتها السابقة وإرادتها. . كان من المستحيل أن تستسلم لليأس وتلقي بكل أسلحتها. . وغمغت لنفسها في إصرار: سأبدأ مرة أخرى من الصفر وسيعود كل شيء كما كان.

ولكن كان من المستحيل أن يمنحها البنك مهلة طويلة للدفع. . أسبوع واحد فقط أو بيع كل ما تملك في المزاد العلني. . وكل البنوك الأخرى رفضت إقراضها المبلغ الكبير. . فلم يعد لديها ما تملكه لتغري أي بنك بإقراضها. . خاصة وأن كل أملاكها صارت معرضة للبيع في المزاد. وكل عملائها تهربوا منها. . حتى من كانوا على استعداد للارتماء تحت قدميها بإشارة منها. . تعللوا بقلة المال في أيديهم وبوار أعمالهم.

واكتشفت الحقيقة فجأة. . حقيقة كل من كانوا يحيطون بها، ومن سكبوا في أذنيها أنهاراً من الإطراء والمديح.

كانت تظنهم يعشقون جمالها وفتنتها. . يجذبهم إليها لهيب سحرها وأنهم كانوا على استعداد لإلقاء أنفسهم في الجحيم بإشارة واحدة منها. .

وفي تلك اللحظة اكتشفت أنهم ما كانوا يطمعون في غير مالها . . كان مالها هو بوصلتهم ومرشد أعمالهم . . ولم يكونوا يرغبون في غير الحصول على هذا المال بأي وسيلة . . كان نفاقهم وتملقهم ومديحهم لها إنما هو من أجل مالها فقط . . أما هي فلم يكن إنسان راغبا فيها برغم جمالها . . وكل من تقدموا طالبين يدها بالعشرات . . إنما كانوا يطلبون هذا المال فقط . . كان المال هو اللؤلؤ الثمين الذي كانوا يسعون إليه جميعا . . أما هي فلم تكن غير محارة تضم هذا اللؤلؤ .

الآن فقط اكتشفت أنهم يقولون عنها أنها مغرورة ومتعالية ومتحجرة القلب وتستحق كل ما جرى لها . . أسمعوها كل ذلك بأذنيها دون أن يخشوا سطوتها أو غضبها ودون أن يخشوا مالها .

للحقيقة قسوتها دائما . .

وفي عالم المال والأعمال لا تقال الحقيقة أبدا . . إلا لمن يخسر ماله .

وعرفت أن المهندس الذي أصيب في انهيار البرج رفع ضدها دعوى تعويض بمليون جنيه وهو يعرف أنها صارت لا تملك مليما واحدا .

كأنه يرغب أن يراها وراء القضبان لتشفى جراحه. . ولو خيروه بين الحصول على هذا القدر من المال أو سجنها. . لاختار أن تسجن دون تردد.

وحملت جرائد الأيام التالية أنباء الفضيحة بالصور. .

ولم تعد قادرة على مغادرة الفيلا. . أحست أنها محاصرة بعيون الكراهية من كل اتجاه. . وحتى الجرائد الملقاة في كل مكان حولها كانت الوجوه المطلة منها تفح غضبا ونقمة. .

وجه المهندس الراقد فوق فراش العجز وهو يتهمها بالتعالي والغرور والجهل، وأنها سبب ما أصابه وأنه لن يهدأ باله ويستريح إلا إذا قام بالقصاص منها وإرسالها الى السجن لتكون عبرة لغيرها.

ووجه النائب العام وهو يقول إن كل الإجراءات اللازمة قد اتخذت في حق المتهمة ومنها منعها من السفر لحين تقديمها للمحاكمة حتى لا تتمكن من الهرب خارج «مصر» كما فعل غيرها، وليأخذ القانون معها مجراه.

ووجه مدير البنك وهو يقول إن أملاكها الأخرى كافية لرد حقوق البنك. . وإنه من المستحيل تأجيل عملية البيع.

ووجوه أخرى عديدة تطالب بالضرب بيد من حديد فوق

أيدي العابثين وقراصنة البناء ممن استباحوا كل شيء في سبيل مكاسبهم . . وأن الفرصة مهيأة لإنزال أشد العقاب بحسناء «برج المعادي» لكي يتيقظ الآخرون .

شعرت كأن الدنيا كلها تكرهها وتحاصرها بتلك الكراهية . . كأن العالم كله يرفضها . . وأصابها هزال شديد ولم تعد تقوى على الوقوف . . شحب وجهها وبدت كأنها تقدمت في العمر عشرين عاما .

ووجدت مربيتها تجمع أشياءها القليلة لتغادر المكان ، فهرعت اليها في فزع تسألها: أين أنت ذاهبة؟

فأجابتها المربية وهي تخفي دموعها: يكفي كل ما سمعته منك . . لن أبقى لحظة واحدة .

تذكرت «مريم» ما قالته لمربيتها العجوز ليلة الكارثة ، فقالت في ألم:

ـ لم أكن في حالة طبيعية وقتها . . أنت أكثر الناس دراية بالكارثة التي حلت بي . . لم أكن في وعيي والجميع تخلوا عني فلا تتركيني أيضا ، لا تجعليني أفقد آخر أمل لي في الحياة .

وانهـارت فوق صـدر مربيتـها باكـية كطـفلة تلوذ بأمهـا . .
فتـساقطت دمـوع العجـوز البدينة إشـفاقا وألما وهي تـربت فوق
رأس «مريم» في حنو أم .

ومـرت الأيام بطيئـة قاتلة لا تـبشـر بأي أمل بعد أن غـادرها
خدم المنزل دون أن يذرفوا على حالها دمعة واحدة .

* * *

ثم أقبل يوم بيع الفيلا في المزاد سريعا . . وباتت ليلتها بقلب
منقبض وأنفاس لاهثة . . كأنه اليوم الذي ستغادر فيه الحياة .

وأصابها منظـر الشمس المشرقة في ذلك الصـباح بانكسار لا
مثيل له .

راح المتـزايدون يقلبـون في الأثاث والتـحف حـولهم . .
أخذوا يرفـعون الأثاث ويتفحـصونه بإمعان ودون أي إحـساس
بالشـفقة . . ويقـلبون التحـف واللوحات فـوق الحائط دون أن
تخالجهم أي مشاعر عطف .

راقـبتـهم «مريم» ومـشـاعـرهـا تمزقـهـا . . كـادت تصـرخ
فيـهم . . تطردهم خـارجا . . تمزق وجـوهـهم بأظافرها وتـقول

لهم إنهم يعتدون على حرماتها وأنها ما كانت تسمح لهم بأن يدنسوا المكان بأنفاسهم.

ولكن مشهد رجال الشرطة الواقفين مع رجال البنك لتنفيذ أمر البيع سدد لها طعنة غائرة.. كأنهم ما جاؤوا إلا ليؤكدوا أنها لم تعد تملك شيئا في المكان.. حتى مجوهراتها وحليها وملابسها تحفظوا عليها ليبيعوها.. لتصير ملكا لآخرين.. وشاهدت أحدهم وكان قصيرا سمينا له هيئة منفرة وهو يقلب في إطار صورة والدها الراحل ويتفحصها بإمعان.. صرخت واندفعت كالمجنونة تختطف الإطار من يد متفحصة، ودفعته في غضب صائحة: أبعد يديك أيها الوغد عن هذه الصورة فهي ليست للبيع.

فاندفع إليها أحد الضباط في لهجة حاسمة قائلا: إن كل شيء هنا للبيع حسب قرار النائب العام، فلا تحاولي تعطيل عملية البيع حتى لا تقعي تحت طائلة القانون.

فقالت وهي تحتضن الصورة في إطارها محاولة أن تمنع نفسها من البكاء: ولكنها صورة أبي وهي غالية عندي.

فتقدم من كان يتفحصه وفي عينيه نظرة متشفية وقال: ولكنني لن أشتري غير هذه الصورة في إطارها.

وغمغم في كراهية: كان والدك أكبر منافس لي في السوق وتسبب في خسارتي الكثير، ولن يسعدني أكثر من أشتري إطار صورته لأمزقها وأهشمها انتقاما.

تحجرت نظرات «مريم».

أدركت في تلك اللحظة كم صارت ضعيفة وليست قادرة حتى على حماية إطار به صورة لوالدها..

واشتعل غضبها وعاودها شيء من شخصيتها السابقة.

وبدت ملامحها الفاتنة كنمرة مهتاجة.. وعرفت في تلك اللحظة كيف كان المال حاميا لها.. وهي قد أضاعت كل شيء ولم تعد لها أي حماية. ورفعت الإطار عاليا وهي تصيح في الرجل القصير السمين: إنه لك.. فخذه وهوت به فوق رأس الرجل، فتحطم الإطار بصوت عالٍ وتناثر زجاجه.. وصرخ القصير البدين وخيط من الدماء يسيل فوق رأسه: سوف أقاضيك وأسجنك ايتها المغرورة المجنونة.

وأشار الى الضباط الواقفين صارخا: أنتم شهود على ما حدث.

واندفع مهرولا يغادر المكان وهو يطأ بقايا الصورة بقدميه في حقد..

واقترب منها أحد الضباط قائلا: لن يفيدك ما تفعلينه، وسيجلب لك المتاعب، ومن الأفضل أن تتركي عملية البيع تتم في هدوء.

نكست «مريم» وجهها. . وشعرت بكل أحزان الدنيا تتفجر في قلبها. . كانت ترغب في أن تبكي. . تصرخ. . تسكب دموع أحزانها أنهارا.

ولكن كان عليها أن تتماسك برغم كل الجراح. . يجب أن تصمد للحظة الأخيرة إكراما لذكرى والدها. .

وقال الخبير المثمن وهو يدق ناقوسا في يده: الآن سيبدأ المزاد. . فمن يعرض سعرا لشراء الفيلا بمحتوياتها بمبلغ مليوني جنيه؟

ولكن أحدا لم يرد. . فعاود الخبير المثمن يقول: حسنا. . سنبيع الأثاث أولا ثم نبيع بعدها الفيلا خالية ثم المجوهرات والملابس. . والآن من يعرض شراء أثاث الفيلا؟

ولكن صوتا جاء من الخلف يقول في ثقة وحسم: إنك لن تبيع شيئا أيها الخبير.

وفي الحال تعلقت أبصار الواقفين بذلك الشاب الجاف المظهر الذي تبدّى في مدخل الفيلا في ملابس أنيقة ونظرة

صارمة.

كان طويلا نحيلا له عينان سوداوان عميقتان لا تفصحان عن شيء.. وكانت أصابعه المنطبقة تشي بقوة إرادته.

وتقدم صوب مريم قائلا: سوف أسدد كل ديونك للبنك.

وأضاف في حسم: وسيصبح كل شيء باسمي.

كان يبدو كوجه من الماضي.

وغمغمت «مريم» بعينين مذهولتين غير مصدقتين: أنت.. «منير عزيز».. مستحيل؟

فأجابها بابتسامة ساخرة قاسية وهو يتأمل أركان الفيلا: ولم لا.. إن القانون يعطيني هذا الحق.. وليس أمتع عندي من أن أمتلك هذه الفيلا بالذات.

كان صوته ينضح بالكراهية.. وأرسلت عيناه وميضا قاسيا بالاحتقار لها والسخرية منها.. وكانت تعرف أنه يكرهها.. أكثر من أي شيء آخر في العالم!!

كان يكرهها.. بقدر ما أحبها ذات يوم منذ سنوات مضت!

شرط . . بالزواج

كان الأمر أشبه بصدمة جديدة أشد قسوة . . وتعلقت عيون الواقفين بهما وقد أدركوا أن سرا ما في الأمر، ودفعهم فضول شره الى ان ينصتوا ويحبسوا أنفاسهم . . وفي صوت مبحوح همست «مريم» تسأل «منير» في ذهول: من أين أتيت بالمال الذي ستشتري به الفيلا وتسدد ديوني للبنك؟

فأجابها وعيناه تشعان نظرة متهكمة: لقد صرت أمتلك من المال الكثير . . وأنا مدين لك بذلك برغم كل شيء . . فلولا أنك طردتني من شركة أبيك ولفقت لي تهمة اختلاس بعض مواد البناء ما أمكنني امتلاك هذا المال .

عضت على شفتيها وأوشكت أن تدميهما . . وفي لحظة خاطفة سطع الماضي في ذاكرتها كأنه حدث منذ أيام قليلة فقط . . كانت قد نسيت كل شيء منذ سنوات وغابت

الأحداث عن ذاكرتها . . ولكن ها هي الذكرى الملتهبة تقفز الى عقلها وعينيها مرة أخرى .

كان زميلا لها في كلية الهندسة . . وكان يكبرها بعامين . . وكان دائما الأول على دفعته . . وبالرغم من عشرات العيون التي كانت تحاصرها من زملائها بمشاعر الحب وتسكب كرامتها مهدرة تحت قدميها لقاء نظرة رضا أو ابتسامة منها فإنها ما كانت تتخيل أن يكون منير بالذات أحد المحلقين في فلك جاذبيتها . . فنظراته الهادئة وشخصيته المنطوية وكلماته القليلة وملابسه القديمة الكالحة التي لا يغيرها . . وعزوفه عن التقرب لأي فتاة ، كانت تدفعها للسخرية منه أمام زملائها وتتهمه بأنه معقد . . وأن ذلك ربما يرجع لكون والده ساعيا أو كاتبا في أرشيف حكومي لا يكاد يستطيع إطعام أسرته . ولم تتخيل لحظة واحدة أن يقع في حبها . . هي بالذات!

وعندما حصل على البكالوريوس كان الأول على دفعته . . فرجاها في خجل أن تتوسط لدى والدها ليعمل في شركته بالإضافة الى عمله كمعيد في الجامعة . . ولم يكن في حاجة لوساطة فقد كان والدها يبحث عن مهندس في مثل كفاءته

ومهارته . . وعمل منير لدى والدها . .

وعندما أبدت رأيا هندسيا ذات يوم في أحد مشاريع والدها التي كان منير يتولى الإشراف عليها ، قال لها وسط بقية العاملين في المشروع بأن رأيها خاطئ ولا يزال ينقصها الكثير من الخبرة وخاصة أنها لا تزال طالبة لم تتخرج بعد . . وقتها أحست بالإهانة تكتسحها وصممت على طرده من شركة أبيها . . كان أول من يقول لها لا ، ويسفه آراءها فاعتبرت الأمر مسألة كرامة شخصية . . صارت تكرهه . . لا تطيق حتى مجرد سماع اسمه . . وهرعت الى أبيها تطلب منه أن يطرده من شركته .

ولكن أباها قال لها إنه مهندس عبقري لا يمكنه التخلي عنه على الأقل لحين اكتمال المشروع الذي يعمل فيه وإلا انهار بأكمله . فكتمت مشاعرها وهي تتحين أقرب فرصة لتطيح به .

وذات يوم فوجئت به يتقدم نحوها في خجل في الكلية ويقول لها إنه يريدها في أمر خاص . .

وهمست لنفسها أن فرصة الانتقام قد حانت . . وانتظرت أن يخبرها بذلك الأمر الخاص متسائلة ان كان يرغب في مكافأة من والدها أم علاوة؟

وفوجئت به يعترف لها بحبه . .

أصابها ذلك بذهول لأنها اكتشفت أنه كان يحبها منذ كان طالبا بالجامعة . . وأنه أخفى مشاعره عنها لأنه كان يرى الفارق بينهما . . وأن مستقبله لم يتضح بعد . . ولكن بعد أن صار يعمل لدى والدها وعين في الجامعة فلم يعد هناك ما يخشاه من طلب يدها . . فقط كان ينتظر موافقتها ليذهب ويطلب يدها من أبيها . .

وكادت تلطمه على وجهه . . وتصرخ فيه بأنه سيبقى في نظرها طوال عمره ذلك الشاب الأبله ذا البذلة الكالحة الذليلة . . ولكنها كتمت مشاعرها وتصنعت ابتسامة وهي تطلب منه وقتا للتفكير . .

وأدركت أنه أعطاها السلاح الذي ستطعنه به . . فهذا هو حال كل الأغبياء دائما .

واستدرجته الى موعد بعيد في الوقت الذي تآمرت فيه مع بعض خفراء الموقع بسرقة كمية من الأسمنت والحديد وأن يتهموه هو بالذات بسرقتها . . وإلا كان مصيرهم الطرد والتشريد .

كانت كراهيتها تحركها لتدبير المؤامرة دون تفكير . . ولم

يشغلها ماذا ستكون النتيجة . . فلم تفكر يوما في مصائر الآخرين . . عندما يتعلق الأمر برغبة لها .

كانت فقط تريد له الصفعة . . لتشعر أنها استردت كرامتها الجريحة .

وذهبت الى الموعد لتقوم بدور المحبة المخلصة وأخبرته إنها وافقت على أن يتقدم لطلب يدها من أبيها . . فطار من السعادة وقال لها إن هذه هي أسعد لحظة في حياته . .

وعادت الى أبيها من الموعد لتتهمه بأنه استدرجها الى مكان ناء وحاول التهجم عليها وسرق مواد البناء وباعها لحسابه .

وطرده أبوها من العمل لديه . .

وطردته الجامعة أيضا عندما انتقلت أخبار الفضيحة إليها . . ومن وقتها انقطعت أخباره عنها . . وعاشت بعدها أياما من السعادة لأنها سددت انتقامها كاملا لذلك الأحمق التافه الذي قال لها «لا» ذات مرة ، ثم جاء يطلب يدها . . كأنه اشتهى نجمة عالية في السماء ، فما كاد يمد أصابعه نحوها في رجاء حتى أحرقته . وها هو الآن يقف أمامها مليئاً بالكراهية والرغبة في الانتقام يرغب في شراء كل ما كان لها . .

تبادل الاثنان المواقع والأدوار . . هوت هي من عليائها

وذاقت مرارة العجز واليأس ومرغت كرامتها في الأوحال . .
وصعد هو عاليا حتى صار كأنه نجمة بين السحاب .

وأفاقت من أفكارها وبدا لها كأنه عدو جاء ليسدد إليها آخر طعنة، فصرخت . وتقدم هو نحو موظفي البنك وأخرج دفتر شيكاته قائلا: إن رصيدي في بنككم يغطي المبلغ المطلوب، وسوف أقوم بتحرير شيكات باسم البنك حالا فتنتهي المديونية .

فأجابه مندوب البنك باحترام: ومن جانبنا سنسجل الفيلا وكل أملاك المدينة باسمك .

قدم «منير» الشيك ممهورا بتوقيعه إلى موظف البنك قائلا: رائع . . بهذا تسوى المسألة .

وأشار بيده للواقفين قائلا: لقد انتهى المزاد . . لم يعد هنا ما يباع . . ولا سبب لوجودكم .

فتحرك الواقفون ليغادروا المكان وهم يرمقون الغريمين بنظرات مختلفة .

خلت الصالة الواسعة إلا منهما تفصلهما بضع خطوات . .
ووقفا يترامقان لحظة في صمت . . كان هو يبدو هادئا

واثقا ودفتر شيكاته بمنحه قوة عظيمة، وعيناه تؤكدان أي رجل قد صار.

أما هي فكانت ترتجف من قمة رأسها لأخمص قدميها وعيناها ذليلتان مهانتان قد تخضبتا بالدماء.. كان بداخلهما بركان يوشك على الانفجار.. ولكنها كتمت مشاعرها حتى لا تنفجر في الصراخ أو البكاء..

وقطب «منير» حاجبيه وقال وهو يتأمل المكان: إن الدنيا تبدو كمسرحية ساخرة حقا.. فقد وقفت ذات يوم في هذا المكان ذليلا مهانا متهما في شرفي وأخلاقي بأنني ذئب ولص أيضاً. أرجوك أن تتنازلي عن اتهامك لي وأن تذكري الحقيقة دون جدوى، وأنت ترمينني بنظرات ساخرة.. وخرجت من هذا الباب ذليلا مهانا ضائعا بلا عمل ولا مستقبل.

وصمت لحظة وهو يرمقها في قسوة ثم قال: ولكن ليس كل الناس متشابهين في تعاملهم مع الصدمات، فالبعض تمنحهم الكوارث قوة مضاعفة ليتغلبوا عليها ويبدأوا من جديد كأنهم ولدوا مرة أخرى.. والبعض الآخر تسحقهم الكوارث فيتمنون الموت لأنفسهم هربا من قسوة الواقع وعيون الساخرين.

لم تنطق «مريم» . . وارتعد فكها ووجهها منكس وهي تتمنى لو أنها ماتت في تلك اللحظة لتتخلص من إحساسها بالهزيمة والعار.

واستدار إليها ليواجهها في جمود مضيفا: كان علي أن أبدأ من جديد، من الصفر في مكان آخر . . وكان علي أن أمتلك تلك القوة التي هزمتني يوما ما ولطخت اسمي وشرفي . . قوة المال . . وهأنذا قد امتلكت منها الكثير بعد سنوات من الشقاء والعمل المتواصل، فصرت أعرف قيمة المال بحق . . بعكس البعض الذين تمنحهم الأقدار مالا بلا حساب دون كد أو تعب، فيضيعونه بتفاهتهم وسفاهتهم وغرورهم ثم يلعنون الأقدار بعد ذلك!

لم تنطق «مريم» بحرف . . كان كل جزء فيها يرتجف بشدة كأنما اخذتها حمى . .

وتساءلت في مرارة إن كان لتلك الآلام من نهاية؟

وفي نعومة أضاف «منير» : يبدو أنني عدت في لحظة مناسبة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه لابنة الحسب والنسب . . بعد أن قرأت القصة كاملة في الجرائد.

لم يكن هناك مهرب في أن تستمر المواجهة فقالت وهي تحاول السيطرة على مشاعرها:

ـ لقد سددت انتقامك مضاعفا وصرت أنت سيد المنزل الذي طردت منه يوما ما.

فأجابها بنعومة: من قال إنني جئت أسعى للانتقام، بالرغم من أنك كنت ذات يوم قاسية بلا قلب لا ترحمين إنسانا.. ولكن لم آت لاجل الأنتقام برغم ذلك.

وتقدم منها أكثر.. تواجها.. كانت في عينيه نظرة غريبة.. نظرة رجل مختلف داسته تقلبات الحياة..

عيناه لا تكشفان عن أعماقهما، ترتسم فيهما تلك النظرة الباردة التي لا تفصح عن شيء.. وحتى صوته كان يدو بلا مشاعر على الإطلاق.

ومط شفتيه قائلا: لقد صار كل شيء باسمي حقا.. ولكن لماذا لا نعقد صفقة؟

لم تنطق، فواصل قائلا: أنا أعرف أنه ليس لك أقارب أو مال أو أي شيء آخر يمكن أن تبدئي منه حياة جديدة.. وأعرف أيضا أن بالخارج ذئابا كثيرين سيسعون الى نهشك وأنت بلا حماية أو مأوى، ومصيرك هو الضياع حتما إن

غادرت هذا المكان تماما كما حدث لي ذات يوم . . فتتضاعف الفضيحة ويلوك الناس سيرتك في كل مكان .

طعنتها كلماته ولكنها كانت الحقيقة . . وأخفت عينيها حتى لا تبكي أمامه . . . وتساءلت أما من نهاية لتلك الآلام؟

وتبللت شفتاها بمذاق دموعها المريرة وغالبت نفسها لكي لا تسقط منها فاقدة الوعي وهي تحس بآلاف المعاول تدق رأسها . . لم تكن تريد أن تظهر بموقف الضعيفة المنهارة أمامه هو بالذات .

وجاءتها كلماته من وسط ضجيج يطن في أذنيها: إنني أعرض عليك أن تبقى الأمور كما كانت في السابق . . أن تقيمي في الفيلا كأنها لا تزال ملكك ، وتعود لك مجوهراتك وكل ما كان لك . . وحتى سيارتك المهشمة سأصلحها لك وأشتري لك غيرها . . فتعودين أمام الناس جميعا كما كنت من قبل . . «مريم طنطاوي» الحسناء الفاتنة ابنة الحسب والنسب التي عاشت حياتها كلها تأمر فتطاع . . وتطأ فوق الجميع وتهشمهم دون أن تفكر لحظة واحدة في مصائرهم . . فما هو رأيك؟

ارتعدت شفتاها . . بدا لها ذلك الحل سحريا ولا يمكن

تصديقه . . كأن الواقف أمامها ملاك ، جاء ليعيد لها كل ما فقدته بلمسة سحرية برغم ما تشي به كلماته من رغبة حقيقية في الانتقام .

ولكنها لم تكن طفلة وكانت تدرك أنه يكرهها . . أكثر من أي شيء آخر في العالم . . وأنه قال ما قاله ليسخر منها .

وعضت شفتها السفلى وقالت محاولة التماسك: لا ألومك بسبب سخريتك مني .

ولكنه عقد حاجبيه في صرامة وجدية وقال:

ـ أنا لا أهزل ولا أسخر منك . . إن عرضي حقيقي وقائم . . فقط ينتظر كلمة الموافقة منك .

تطلعت إليه غير مصدقة . . كانت في صوته لهجة عجزت عن تفسيرها . . لم تكن لهجة انتقام . . وأحست أنها في دوامة وجاء صوته مضيفا: فقط لي شرط واحد لتنفيذ كل ما قلته .

همست في إعياء تقول كأنها غريق يتعلق بآخر أمل له: شرط . . ما هو؟

فأجابها وفوق شفتيه شبح ابتسامة قاسية: أن نتزوج .

قرار

لم تخدعها أذناها فيما قاله «منير» . . ولم يكن يهزل أيضاً . .

وأعطاها مهلة يوم واحد لتتخذ قرارها بالرفض أو القبول . .

لم يكن يبدو أنه يطلب شيئا غاليا وهو يسألها للزواج . .

لم يكن طلبه كالمرة الأولى بكل تأكيد .

كان مختلفا . . لم يعد ذلك الشاب الغرير الساذج الذي جاءها يطلب يدها على استحياء المرة الأولى ، ذليلا مطأطأ الرأس كأنه يدرك أنه يطلب شيئا ثمينا غاليا . . هذه المرة كان كمن يعرض شراء تحفة جميلة يملك ثمنها وله من المال ما يمكنه من اقتنائها .

قال انه يعرف عوامل الرفض لديها . . ولكن عليها أن تفكر

جيدا قبل أن تعلن رأيها . . فمصيرها لن يكون واحدا في الحالتين .

كادت لحظتها أن تعلن رفضها وكراهيتها له . . تكرهه لأنه يكرهها .

ولكن الأمس ليس كاليوم . . وهي قد صارت في موضع يجبرها على العيش مع إنسان تكرهه لأنه بات يوفر لها مكانا يأويها . . مكانا كان ملكا لها قبل أيام قليلة ولكنها أضاعته بطيشها وتهورها وغرورها .

لو أنها استمعت لرأي مهندس شركتها . .

لو أنها لم تبدد الملايين في أشياء تافهة .

لو أنها لم تجعل كل إنسان يقترب منها ينقم عليها ويمتلئ قلبه بجراح دامية تجاهها . .

حتى ذلك الإنسان الوحيد الذي مد لها يد المساعدة في قلب المحنة . . كانت الكراهية هي التي تحركه . .

ووقفت أمام المرآة تتأمل وجهها الذابل وملامحها المريضة . . دفعت ثمنا غاليا ولا شك . . ولكن لا يزال أمامها الكثير لتدفعه . . ولم تكن تلك إلا البداية بكل تأكيد . . وما ينتظرها من شقاء كان أمر وأعظم .

كـادت تسـأل «منيـر» لماذا يرغب في الزواج منهـا وهو يكرههـا الى هذا الحد، ولـكن السؤال انعقـد على لسانهـا ولم تستطع البوح به أبداً.

خشيت من الإجابة رغم تأكدهـا منها.. خشيت أن تسمع بأذنيها أنه ما جاء إلا لأجل إذلالها والانتقام منها.. ليس هناك أقـسى من الحب الذي ينقلب الى كـراهيـة.. وكـان من المستـحيل عليـها أن تتزوج رجلا يكرهها.. ولا يريد بزواجه منها غير الانتقام..

صرخت في لوعـة: لـن يمكنني أن أتزوجـه أبدا.. الموت أهون.

واندفعت نحو حقيبتها تملؤها بملابسها.

ولكن أصابعها تجمدت فوق الحقيبة.. لم يكن لها أي مكان تذهب إليـه.. ولا كـان معـهـا أي مـال.. ولم يـكن هو غرا ساذجا ليترك لها مجوهراتها لتبدأ بها حياة جديدة في مكان ما..

وحتى تلك الملابس كان قد دفع ثمنها.. ولم تعد ملكا لها.

كانت ضـائعة تائهة بدونه، شـيئا لا قـيمة له.. وكـما قال هو فإن الذئاب تنتظرها في الخارج.

انهارت باكية فوق حقيبتها . . لقد ترك لها الخيار في أن تقول نعم أو لا . .

ولكن هل كان الخيار بيدها حقا؟

تطلعت الى الجدران والنوافذ والأثاث . . كانت كل قطعة في المنزل تبدو غريبة عنها . . إنها ملك لشخص آخر غيرها . .

كيف كان بإمكانها أن تحيا في نفس المكان مرة أخرى . . أن تعيدها عصمة رجل الى الشيء الذي كانت تملكه فتتوهم أنها صاحبته . . كانت موقنة بأنها لا تستطيع أن تعيش في مكان آخر غير هذا المنزل الذي ولدت وعاشت فيه عمرها كله . . في هذا المكان شهدت لحظات سعادة لا حصر لها . . في نفس المكان كانت يوما ذات كبرياء وقوة . . ومال .

فقط لو أنها كانت أقل قسوة عليه يوم أرادت تلقينه درسا قاسيا . .

لو أنها كانت أقل غرورا وطيشا واندفاعا؟

من يمكن أن تلوم غير نفسها على ما حدث؟

لو أنها استمعت إلى نصائح مهندس شركتها . . لو أنها استمعت الى أي نصيحة في حياتها . . ولو أنها كانت أقل قسوة؟

وواجهتها دموعها أمام المرآة وهي تسقط من عينيها الذابلتين فوق وجنتيها الشاحبتين . . كان لا يزال هناك أمل في أن تبقى بنفس المكان .

كان أهون الخيارين مرا وصعبا . .

واقتربت منها مربيتها العجوز الطيبة . . فقالت «مريم» منتحبة عندما رأتها: إنني لا أدري ماذا أختار . . الضياع والتشرد في الطرقات أم الزواج من رجل يكرهني كل الكراهية ويسعى للانتقام مني؟

قالت المربية وهي تغالب دموعها: سمعتك أولا يا ابنتي؟

تساءلت من وسط دموعها:

ـ ماذا تعنين؟

قالت المربية بلهجة من عركت الحياة:

ـ إنه يعرض عرضا برغم قسوته ، إلا أنه سيصون سمعتك وسيحميك من كلام الناس والفضيحة .

همست في مرارة وهي تخفي وجهها بكفيها: هل تريدينني أن أتزوجه حتى إذا كان ذلك على حساب كرامتي؟

احتضنتها المربية في عطف قائلة:

ـ إن رفضت عرضه لم يبق لك شيء . . لا كرامتك ولا سمعتك .

رفعت إليها عينين ذابلتين انطفأ بريقهما وقالت:

ـ ولكنه يكرهني.

أمسكتها مربيتها من كتفيها وقالت في توكيد:

ـ بيدك أن تحولي كراهيته إلى حب مرة أخرى.

هتفت: مستحيل.. إنه لم يعد نفس الإنسان.. لم يعد لي أي تأثير عليه.. إنه لا يرى فيّ الآن غير عدو قديم يسعى لكي يجعله يدفع ثمنا غاليا لمؤامرة قديمة.

قالت المربية كأنها تمنح تسامحا: الكراهية لا تدوم للأبد.

هزت «مريم» رأسها في مرارة قائلة: إنه لن ينسى أنني شوهت سمعته ودست على كرامته ولطخت شرفه في الوحل.. لن ينسى أبداً أنه على استعداد لأن يرد الانتقام ولو كلفه ذلك الملايين وهذا ما جاء يفعله.

ومدت أصابع مرتعدة تلتقط صورة والدها التي تهشم إطارها وتمزقت حوافها.. وحدقت في الصورة بمرارة وشجن وهمست تقول: آه يا أبي.. بماذا كنت ستنصحني لو كنت حيا.؟.

وعضت شفتيها مضيفة في ألم: ولكني لم أكن أستمع الى نصائحك أبداً، فلطالما حاولت أن تجعلني أقل غرورا وقسوة

ففشلت . . كنت أرى نفسي منزهة عن كل خطأ . . وأنني على صواب دائما وهأنذا أدفع الثمن غاليا . . وبرغم الملايين التي تركتها لي فإنني عجزت حتى عن أن أصونها فبددتها بطيشي وتهوري وغروري ودفعت ثمنا غاليا .

وعضت شفتيها في قسوة فأدمتهما . . وهمست تحدث نفسها وعيناها ذاهلتان: إذن فعليّ أن أختار بين أن أصون سمعتي . . أو كرامتي؟

واحتضنت الصورة المهشمة في رفق هامسة: لن أسمح لإنسان أن يمس سمعة ابنتك يا أبي ، وحتى لو داس هذا الرجل فوق كرامتي بقدميه فسأتحمله لو أنه أذلني ليل نهار ، وقلب حياتي الى جحيم فلن أشكو ، فلم يعد لي ملجأ غيره . . لأنني منذ البداية اخترت هذا المصير .

وحدقت في المرآة . . كانت شاحبة ضعيفة واهنة دون سند . . كان كل ما فيها منكسرا حتى نظرة عينيها . .

وهمست تقول: ربما أتمكن يوما من أن أغير مشاعره . . ربما أتمكن من أن أحول هذه الكراهية الى حب مرة أخرى .

وأخفت وجهها بين كفيها . . كأنها تهرب من نفسها وهي موقنة أن تلك المحاولة محكوم عليها بالفشل دون شك .

وظيفة تافهة

وفي الصباح حاولت إخفاء الهالات السوداء تحت عينيها فلم تفلح . . وبقيت الهالات علامة على سهرها وكل ما يختلج في قلبها ، وفوجئت بعودة جميع الخدم الذين تركوها من قبل ، فأدركت أن «منير» هو الذي أعادهم فلم تنطق بكلمة . . اما الوحيد الذي لم يعد فكان الخادم العجوز الذي طردته شر طردة .

وارتدت «مريم» رداء بسيطاً من التيل الأبيض وبآخر ما تبقى لها من نقود استقلت «تاكسي» الى مكان شركة «منير» الذي ترك عنوانها ببطاقته . .

واستقبلتها سكرتيرته في أدب طالبة منها أن تنتظر بعض الوقت الى أن يفرغ «منير» من اجتماعه ببعض مهندسي شركته .

كان الجميع يعرفونها دون شك ، فصورها قد ملأت كل الجرائد التي راحت تلوك سيرتها وقتا طويلا وصار كثيرون لا حديث لهم غيرها . .

وبقيت تنتظر رؤية «منير» أكثر من ثلاث ساعات بالرغم من أن سكرتيرته أخبرتها أنه يعرف أنها تنتظره .

وأخيرا سمح لها بالدخول .

وخطت الى داخل مكتبه . كان مشغولا برسم هندسي لمشروع جديد يوشك أن يقوم بتنفيذه . . وظهره لها . وكانت متأكدة أنه شعر بدخولها . . ولكنها بقيت مكانها واقفة في صمت تراقبه وأصابعه تعمل في سرعة ومهارة . .

وأخيراً التفت إليها . . وحدجها بنظرة طويلة خالية من أي مشاعر . . كأن عينيه السوداوين حجران لا ينطقان ، وأربكتها نظراته وجعلتها ترتجف . .

وخشيت أن يكون قد غير رأيه بشأن الزواج منها . . كانت على استعداد لأن تتذلل له لكي يوافق .

وهمست في شحوب وإعياء عندما طال الصمت: إنني موافقة . . على عرضك .

لم تظهر عليه أي مظاهر للابتهاج . . وبدت ملامحه كأنه

يوشك أن يعقد صفقة فزم شفتيه ونقر حافة مكتبه بيده قائلا: لا بأس . . سوف نتحدث في الأمر فيما بعد .

صدمتها عبارته ولم تدر ماذا يقصد بالضبط . . وقال مواصلا: ولكن لا شيء بالطبع قد تغير في تفاصيل اتفاقنا . . فستبقين في الفيلا كأنها لا تزال ملكك .

ومال عليها مضيفا: بالطبع لا أحد يعرف بتفاصيل اتفاقنا . . حتى لا يقولوا إنني إنسان غر أحمق أنفق أموالي لأجل مشاعر تافهة .

أوشكت أن تبكي لوطأة كلماته وقسوتها ، كان يجلدها بسياط كلماته دون رحمة ، ولكنها قررت أن تتحمل وتتماسك حتى النهاية ، فقد اتخذت قرارها وعليها أن تمضي فيه حتى النهاية . . وهي قد قست عليه يوما بأكثر من ذلك .

وضغط زرا بجواره ، فخطت سكرتيرته بعد لحظة الى مكتبه ووقفت تنتظر أوامره فقال لها: منذ اليوم ستعمل الآنسة «مريم طنطاوي» لدينا . .

فاجأتها عبارته . . كأنها تلقت لطمة . . انعقد لسانها وأصابه شلل ولم تتخيل لحظة أن تعمل لدى إنسان ما . . بالذات هو . . ولكنه لم يعبأ بما انطبع على وجهها من مشاعر

وواصل لسكرتيرته قائلا: إنها تحمل بكالوريوس هندسة ولكن لا يمكننا الاعتماد على ذلك نظرا للحوادث الأخيرة التي كشفت لها عن خبرتها الحقيقية . . وهكذا لا يتبقى أمامنا غير الأعمال الكتابية .

ورمقها بنظرة محايدة متسائلا: هل تجيدين الكتابة على الآلة الكاتبة؟

أوشكت ان تنفجر باكية . . فقال «منير» مستدركا كأنه لم يلاحظ شيئا ما: آه . . لقد نسيت فهي لم تمارس مثل تلك الأعمال من قبل . . ولكن يمكننا مبدئيا تعيينها في وظيفة تليفونيست لتحويل المكالمات الى مهندسي الشركة وموظفيها . . فهو عمل لا يحتاج لأي خبرة .

نكست «مريم» رأسها دون أن تنطق ، وقد أدركت منذ تلك اللحظة أنه لم يعد لها حق الاعتراض ، وأن ذلك الرجل صار هو المتحكم في مصيرها . لم يكن خافيا عليها سر ما يفعله . . لقد كان موظفا يوما ما في شركة أبيها . . وها هي قد صارت موظفة لديه رغما عنها ودون إرادتها . .

صارت عاملة تليفون لا أكثر برغم شهادتها . . فكأنه يرد لها اللطمة بأقسى منها .

وألقى «منير» نظرة متعجلة على ساعته قائلا: سوف نحدد

مسألة الأجر فيما بعد. . أما الآن فقد حان موعد إلقائي محاضراتي بالجامعة.

فاجأتها عبارته فرفعت إليه عينين مدهوشتين، ولاحظ «منير» نظراتها فقال شارحا بلهجة تفيض سخرية: لقد نسيت أن أخبرك أنني بعد أن رفضتني الجامعة بسبب فضيحة وهمية رفعت ضدها قضية وكسبتها وصرت الآن أستاذا مساعدا بها.

وتركها وغادر الحجرة كأنه اكتفى بالمفاجآت التي ألقى بها إليها. . أو كأنها لا تستحق المزيد من الوقت لإضاعته معها.

ورمقتها السكرتيرة بنظرة جامدة قائلة لها: اتبعيني.

وقادتها الى حجرة صغيرة كالحة الجدران بها جهاز صغير لإيصال المكالمات الداخلية، وسألتها: هل لديك أي خبرة بالعمل على هذا الجهاز؟

همست «مريم» بصوت شاحب هزيل بالنفي. . فقالت السكرتيرة في استياء: أليست لديك خبرة في أي شيء؟

وجلست أمام الجهاز ورمقت «مريم» بعينين محذرتين قائلة: انظري لي جيدا فليس لدي وقت لأعيد الشرح. . والآن سترين كيف يكون عملك.

ولم تكن بحاجة الى إعادة الشرح.

وأغلقت باب الحجرة الصغيرة بعد خروج السكرتيرة لتنفجر في بكاء حار . .

ليس أقسى من أن يكره إنسان نفسه . . وأن يحتقر ذاته . . وهي قد جلبت لنفسها كل تلك الإهانات ولم يعد لها الحق حتى في أن تشكو . وأفاقت على صوت دقات جرس التليفون . . فهرعت الى السماعة خشية أن تفقد تلك الوظيفة التي لم تفكر لحظة يوما ما أن القدر قد يلقيها أمامها .

لم يكن أمامها من خيار غير أن تعمل وتشقى لتكسب عيشها . .

وانتهى اليوم فغادرت مكانها ، وغادرت مبنى الشركة من باب جانبي ، كأنها لص متسلل يخشى أن تراه العيون . . وكأنها كانت تعرف مقدما أن عشرات من عيون موظفي الشركة كانت تتلهف لرؤية «مريم طنطاوي» وقد صارت عاملة تليفون .

ولم تكن تملك ما تستقل به «تاكسي» للعودة . . فوقفت لحظة مترددة أمام أحد محال الصاغة وهي تعبث بخاتمها مفكرة إن كانت تبيعه أم لا؟

ولكنها تذكرت سريعا ، فحتى الخاتم لم يعد ملكها . . فهي لم تعد تملك حتى نفسها .

وسارت أكثر من ساعتين حتى وصلت الى الفيلا وارتمت فوق أول مقعد صادفها في الصالة . . وعيناها قد بدتا كأنما لم تعد لديهما القدرة على ذرف المزيد من الدموع . . وكان أول ما فعلته أن لملمت ملابسها وأشياءها الخاصة ووضعتها في حجرة صغيرة مهملة كانت مخصصة لإقامة الخدم أعادت تنظيفها وفرشتها بسرير صغير . .

واقتربت منها المربية متسائلة ، فقالت «مريم» وهي تغالب أحزانها: ستصير هذه الحجرة مأواي منذ هذه اللحظة . . فلم أعد سيدة هذا المنزل ، حتى وإن تزوجت صاحبه . . فلم أعد أكثر من موظفة تافهة في شركته!

قسوة ودموع

وجفاها النوم طوال الليل . . وخلال الليالي التالية . . كأنها لم تعد قادرة على إغماض عينيها أبدا . . وخلال أسبوع كامل لم تشاهد «منير» في الشركة أو حتى في الفيلا . .

ولم تكن هي راغبة في لقائه . . تشعر أن قواها تخونها أمامه وصارت ترتجف لتخيل مشهده أمامها . . صارت لا تجرؤ على الوقوف في مرمى عينيه ولا تجد الجرأة لتحدق فيهما بعد ذلك لحظة واحدة .

وأصابها المشوار اليومي الطويل بهزال شديد وهي لا تملك من المال شيئا ، وفاجأتها مربيتها ذات صباح وهي تمد إليها مبلغا من المال قائلة في إشفاق:

خذي هذا المال القليل يا ابنتي فأنا أعرف أنك لا تملكين أي نقود ، ولو كان معي أكثر منه لمنحتك إياه .

مدت «مريم» أصابع مرتجفة تلتقط النقود، وغمغمت في صوت ذبيح: سوف أرد لك هذا المال عندما أقبض راتبي.. وسأعتبره سلفة منك.

واندفعت الى حجرتها الصغيرة غارقة في دموعها..

ومن الخلف في مدخل الفيلا تبدى ظل لشخص طويل القامة متجهم الملامح راح يرمق «مريم» من ظهرها وهي تندفع صاعدة لأعلى.. وتجلت في عينيه السوداوين تلك اللحظة نظرة عميقة لا تفصح عن مكنونها.

وعندما همت بدخول مكان عملها في الصباح التالي فوجئت بمن يضع يده على كتفها فالتفتت في ذعر، وطالعها وجه خشن مقطب يسألها: أنت «مريم طنطاوي»؟

فأومأت برأسها موافقة وكل جزء فيها يرتجف، فقال صاحب الوجه الخشن:

أنت مطلوبة في النيابة، بتهمة إصابة أحد رجال الأعمال إصابة بالغة في رأسه.

جمدت الكلمات في حلقها وأصابها دوار.. وتمنت لو أن صاعقة انقضت عليها من السماء فقتلتها لساعتها..

لكنّ هذا الوجه الخشن جذبها من يدها بعنف الى سيارة

شرطة قريبة وسط نظرات موظفي الشركة فانقادت إليه مسلوبة الإرادة .

وأمام وكيل النيابة انهارت وهي تقول له منتحبة: أرجوك مر بوضعي في السجن . . اجعلهم يحكمون علي بالسجن المؤبد أو الإعدام ، فيكفيني ما لاقيته حتى الآن وكل ما مر بي من آلام ومهانة . . فلم تعد لي قدرة على مواصلة الحياة أو مواجهة الناس .

ولكن شخصا قصير القامة متين البنية وقف أمامها قائلا لوكيل النيابة: إنني محامي المتهمة .

وأصابها ذهول وهي ترى ذلك الشخص يجادل وكيل النيابة حتى أمر بالإفراج عنها . . ثم اصطحبها في سيارته وقال دون أن ينتظر استفسارها: إنني محامي شركة الباشمهندس «منير» . . وعندما علم بنبأ القبض عليك أمرني بالذهاب الى النيابة خلفك .

أطرقت برأسها في صمت وعيناها منكستان تحدقان في الفراغ . . صار «منير» المنقذ لها من كل المصائب المحيقة بها كأنه ملاك حارس . . ولكنه ما أنقذها من السجن إلا ليواصل انتقامه منها .

وكانت مدينة له بالشكر على أي حال حتى لو كان في ذلك المزيد من جراحها. وطرقت باب سكرتيرته تستأذن في الدخول إليه. . ورأته واقفا في مكتبه وعيناه مصوبتان إليها لحظة دخولها من باب غرفته كأنه كان ينتظرها.

وتلعثمت الكلمات فوق شفتيها لحظة ثم همست تقول في إعياء: شكرا لك لإرسالك محاميك إلي.

فأجابها وهو يشعل سيجارا فاخرا: أنت موظفة لدي. . وكان يجب أن أبعث إليك بمحامي الشركة إنقاذا لسمعة الشركة على الأقل.

كانت لهجته قاسية ممزوجة بالسخرية. . وواصل بنفس اللهجة: إن ذلك الرجل القصير البدين الذي هشمت صورة والدك فوق رأسه لن يتنازل عن شكواه ضدك قبل أن ينال مبلغا لا بأس به. . وكذلك المهندس الذي فقد ساقيه تحت برجك المنهار.

ورمقها في قسوة وهو يضيف: ولا أظن أنك لو وفرت كل ما ستكسبينه عمرك كله من وظيفتك فستتمكنين من إرضائهما. . فأنت في مأزق بالغ كما ترين.

أجهشت بالبكاء رغما عنها. . كانت قسوته لا مثيل

لها. . وغمغمت من بين دموعها: لماذا أرسلت محاميك إلي لإنقاذي من السجن إن كنت تكرهني بمثل هذه الصورة؟

واندفعت الى الباب مهرولة ولكنه صاح بها في غضب من الخلف: أنا لم آذن لك بمغادرة مكتبي بعد. .

استدارت صوبه. . شلت إرادتها وهي تتذكر أنها ليست سوى موظفة صغيرة لديه. . وأنه صار يتحكم حتى في أنفاسها.

وأخرج هو مبلغا صغيرا من المال مده إليها قائلا: هذا مرتب شهر مقدما. . فأنا أعرف أنك في حاجة الى المال. . وسوف نخصمه منك على دفعات شهرية.

ولكن يده ظلت معلقة بالمال دون أن تمسه أصابعها. .

وتراجعت «مريم» للوراء وعيناها معلقتان به في ذهول متسائلة إن كان قادرا حتى على قراءة أفكارها. . وراقبها «منير» في صمت وهي تندفع جارية من مكتبه دون أن يستوقفها. .

وعندما خلت الحجرة الآمنة جلس ببطء فوق مقعده. . وراح يرمق النقود في صمت وتقطيب عميق. . وثمة نظرة جريحة تتراقص في عينيه.

ولم تعد «مريم» لمكان عملها. .

بل هرولت تغادر الشركة بأكملها وهي تشعر أنها تهرب

من قبضة قاسية تكاد تطحن عظامها . . واستقلت «تاكسي» الى الفيلا . . وأسرعت الى حجرتها وراحت تجمع ملابسها في حقيبة صغيرة ودموعها تغرق وجهها .

وما كادت تستدير صوب الباب المفتوح حتى فوجئت به يسده . . وسألها في صوت خشن: إلى أين أنت ذاهبة؟

لم يكن هناك مفر من المواجهة ، فمسحت دموعها وواجهته في تحد قائلة:

سأذهب إلى أي مكان ، فليس هذا من شأنك . .

وصرت على أسنانها مضيفة: من حقي أن أتحكم في حياتي كما أشاء وأنت لا سلطان لك علي .

فتقدم نحوها وهو يقول: لم يعد من حقك أن تتحكمي في حياتك كما تقولين . .

وأشار بيده الى الحوائط حوله مضيفا: لقد اشتريت هذا المكان بكل ما فيه . . وأنت جزء منه ليس لك إلا أن تخضعي لإرادتي .

أصابها ما قاله بجنون . . وصرخت في هيستريا: لن يمكنك أن تشتريني مهما فعلت .

أجابها ساخرا: أنت بعت نفسك لحظة أن وافقت على أن

نتزوج من أجل بقائك في هذا المكان. . وهكذا ترين أننا عقدنا صفقة عادلة ولا يحق لك الآن التنصل منها.

عضت «مريم» على شفتها السفلى حتى أوشكت أن تمزقها. . وواصل «منير» دون شفقة: أما بخصوص زواجنا فكما أخبرتك لم يعد الأمر ملحا كما كان من قبل.

وأشار الى باب حجرتها مواصلا: إن غادرت هذا الباب فلن تعودي إليه أبدا. . وتذكري أنك ستصبحين بلا مأوى أو عمل أو مال. . وأن هناك من يسعى لإدخالك السجن بأي ثمن.

نكست رأسها ومرارة الهزيمة تقتلها. .

وصوب إليها «منير» كلمات كالطعنة قائلا: كنت أنتظر شكرك لا هروبك. . ولكن يبدو أن حال بعض الناس لا يتغير أبدا. . وأنهم لا يفقدون صفاتهم السيئة مهما تبدلت عليهم الأيام.

وغادر المكان بوجه مقطب غاضب. .

وتهاوت فوق فراشها وكل جزء في جسدها يرتعد كأنما أصابتها حمى.

مال غير منتظر

وكما قال لها لم يكن هناك مكان آخر تذهب إليه ولم تكن في حاجة الى تأكيد بأنها صارت مسلوبة الإرادة أمام هذا الإنسان. وأصبح هو المتحكم في حياتها وحتى في خلجاتها.

صارت ترتعد من مجرد ذكر اسمه بالرغم من أنه اختفى عن عينيها الأسابيع التالية..

وهزل بدنها أكثر.. وخيل إليها أن رجال الشرطة قد يأتون في أي لحظة لسجنها بسبب التهم التي تلاحقها.

صارت ترتجف لأقل صوت.. وتنتابها الكوابيس ليلا فلا يكاد يغمض لها جفن.. وأرعبتها الهواجس في أن كل من يسير خلفها أو يحدجها بنظرة إنما يتأهب في اللحظة التالية لايذائها. وانطوت على نفسها أكثر، فلم تعد لديها رغبة حتى في محادثة مربيتها الطيبة التي راحت تسهر على سلامتها

وتحاول أن تهون عليها قدر استطاعتها . .

ولكن أشياء كثيرة كانت قد انهارت في حياتها ومن المستحيل أن تستعيدها مرة أخرى .

وعندما عادت ذات يوم الى الفيلا وهي تشعر بإرهاق شديد فاجأتها مربيتها قائلة: هناك شخص ينتظرك منذ وقت طويل .

فأصابتها ارتجافة هلع وتساءلت في شك وذعر: هل هو من رجال الشرطة؟

ولكن المربية طمأنتها قائلة: لا . . بل إنه يقول انه كان صديقا لوالدك رحمه الله .

اتجهت «مريم» الى الكهل الذي نهض بصعوبة متساندا على عصاه . . ومد يدا مغضنة مسلما على «مريم» قائلا: كيف حالك يا ابنتي . . سامحيني فقد كنت غائبا في سفر طويل فلم يتح لي أن آتي في الوقت المناسب لتقديم واجب العزاء في وفاة والدك . .

تأملته «مريم» في دهشة محاولة أن تتذكر أين شاهدت هذا الكهل من قبل ، فقال مفسرا لها: ألا زلت تذكرينني أم أنك نسيتني؟

فشهقت «مريم» غير مصدقة: أنت عم «عابد سالم» صديق والدي الأثير رحمه الله وزميل دراسته. . أليس كذلك؟

شاعت ابتسامة على الوجه المغضن وقال الكهل: الحمد لله أنك تذكرتني، فقد مرت سنوات طويلة منذ آخر مرة شاهدتني فيها.

وصمت لحظة وجلس في إرهاق وهو يقول: عندما عدت من الخارج منذ يومين أخبروني بكل ما جرى لك فتألمت كثيرا.

نكست «مريم» رأسها في صمت وألم ولم تنطق. . واصل الكهل قائلا: كان الأمر بمثابة صدمة بالنسبة لي، ولمت نفسي كثيرا لأنني لم أكن موجودا في اللحظة المناسبة لمساعدتك. . فقد كنت دائما أعتبرك كابنتي.

والتقطت أصابعه المرتجفة حقيبة جلدية متوسطة الحجم من جواره مدها الى «مريم» قائلا: خذي هذه الحقيبة يا ابنتي. . فقد كانت أمانة في عنقي من والدك. . وهأنذا أردها اليك.

سألته «مريم» في دهشة: ماذا يوجد بداخل هذه الحقيبة؟

أجابها الكهل: انه مبلغ من المال كنت في حاجة إليه ذات يوم فأقرضني والدك إياه منذ سنوات. . وسافرت بعدها ولم

تتح لي الظروف لإعادته إليه . . ولكن هأنذا أعيده إليك كاملا .

راقبته «مريم» في دهشة دون أن تستوعب كل ما قاله ، وواصل الكهل في صوت شاحب مريض: لقد كنت أخشى أن أموت وهذا المال دين في عنقي لأبيك . . والحمد لله أنني تمكنت من رده . . إنه مبلغ قليل ولكن أظن أنه قد يكون مفيدا لك في مثل هذه الظروف . .

ارتعدت شفتا «مريم» . . خيل لها أنها تحلم . . ودق قلبها بعنف شديد وخشيت ان تفقد وعيها ومدت أصابع مرتجفة لتلمس الحقيبة متسائلة بأنفاس متهدجة: أخبرني . . كم المبلغ الذي تحتويه هذه الحقيبة؟

أجابها الكهل وهو يتأملها كأنه يرغب في أن يرى رد فعلها . .

ـ مائتا ألف جنيه .

صرخت مريم دون وعي . . وقفزت من مكانها كأنما أصابها جنون . . وأمسكت بالكهل من كتفيه تهزه صارخة وجنون العالم كله يقفز في عينيها: هل تقول الصدق . . أحقا تحتوي هذه الحقيبة على كل هذا المبلغ؟

أجابها الكهل في وهن: افتحي الحقيبة وشاهدي المال بنفسك.

ولم تصدق إلا عندما مست أصابعها أكداس المال المرتصة بداخل الحقيبة.

في تلك اللحظة أحست أنها تسترد قوتها مرة أخرى.. كأن شرايين دمائها عادت تتدفق في عروقها من جديد..

وكأنها تستعيد كرامتها المهددة ثانية وترفع رأسها أمام العالم كله.

واحتضنت المال في نشوة طاغية وهي تشهق بالبكاء.. كانت دموع السعادة هذه المرة، وراحت تدور في فراغ المكان محتضنة المال وهي تشهق وتبكي في وقت واحد، واستأذن الكهل ليغادر المكان فلم تشعر به..

وأقبلت مربيتها تراقبها في صمت فلم تحس بها..

كانت وكأنها في حلم سعيد.. نهاية الكابوس الذي عاشت فيه شهورا طويلة.. واندفعت نحو مربيتها تحتضنها وتقبلها هاتفة: لقد انتهى كل شيء.. ولن يتحكم في حياتي إنسان آخر بعد اليوم.. سأصير حرة.. حرة.

وهزت المربية من كتفيها صائحة: بهذا المال يمكنني شراء

شقة نعيش فيها معا، ويبقيته يمكنني إنشاء مشروع صغير نعيش منه.
واحتضنت المال أكثر وعيناها تشعان ببريق السعادة هاتفة: سوف تعود السعادة إلينا من جديد، وسينتهي هذا الكابوس. . فشكرا لك يا أبي. . شكرا لك في قبرك.
وتنبهت الى صوت الخطوات التي توقفت خلفها. .
واستدارت وقد تعرفت على صاحب الخطوات قبل أن تراه.
كان هو. . «منير». . ولكنها تلك المرة لم تخش نظرته ولا قسوة ملامحه بل سعدت لأن أمنيتها في رؤيته تحققت سريعا. . فاقتربت منه في تحد قائلة: لحسن الحظ أنك عدت فوفرت علي مشقة الذهاب إليك في مكتبك.
راقبها «منير» في صمت دون أن تنبس شفتاه المزمومتين بكلمة، وواصلت «مريم» في اندفاع وشفتاها تقذفان بالكلمات في غضب: الآن فقط يمكنني أن أقول لك إنني لم أعد في حاجة إليك. . لا إلى مسكنك ولا إلى عملك. . بعد الآن لن يجبرني شيء في العالم لأن أتحمل قسوة كلماتك وسخرية قلبك. . فمنذ هذه اللحظة لم تعد تمتلكني مثلما امتلكت هذا المنزل بكل ما فيه. . ولم تعد هناك قوة في العالم قادرة على أن تجبرني على التطلع إليك ورؤيتك. .

لم ينطق أيضا. . ورمق المال في لحظة خاطفة وبدا أنه أدرك كل شيء. . وقالت «مريم» مواصلة في تهكم: لسوف أغادر هذا المكان دون أن تتمكن من منعي. . وبالطبع لا يسعني غير شكرك لأنك وفرت لي الإقامة والعمل. . وإن كنت لن أنسى أبدا أنك أذقتني آلاما ومرارة لا حدّ لهما. . وجعلتني أتجرع السم بيدي. . فقد أسأت الي كما لم يسئ إنسان لي في حياتي.

وسددت أصبعها في وجهه صارخة: سأخبرك بما لم أستطع مواجهتك به في الأيام السابقة. . أنا أكرهك. . أكرهك. .

وانفجرت في ضحكة عالية هيسترية. . ضحكة صاخبة مختلطة بالدموع!

وانكشف السر

ولم يعترضها «منير» أو يحاول منعها . . بل غادر الفيلا في صمت دون أن ينطق بحرف واحد كأنما أدرك أنه فقد السبب الذي كان يستمد منه قوته وسيطرته عليها. وفي الليلة نفسها غادرت «مريم» الفيلا وأقامت مع مربيتها في شقة مفروشة لحين انتهائها من شراء شقة صغيرة وتأثيثها . .

وتكلف شراء الشقة وتأثيثها نصف المبلغ وأكثر من شهرين . . ووضعت بقيته في البنك خشية من ضياعه.

وفي تلك اللحظة فقط شعرت أنها استردت حريتها وكرامتها . . ولكن نظرات مربيتها العجوز أصابتها بالحيرة والدهشة ، كانت نظراتها مشحونة باللوم والحزن ، فسألتها ذات يوم: ألست سعيدة بهذا المال الذي جاءني على غير انتظار فانتشلني من الواقع المرير الذي كنت أعيشه؟

قالت المربية في ألم: لم يكن «منير» يستحق منك تلك المعاملة والإهانات التي وجهتها إليه.

انتفضت «مريم» في غضب قائلة: وهل كنت تريدين مني أن أشكره لكل إساءاته إلي وإذلاله لي؟

قالت المربية وهي تهز رأسها حزنا:

- لو أنه لم يكن حريصا على عدم الضياع لما سمح لك بالإقامة بالفيلا وأوجد لك عملا في شركته.

رمتها «مريم» بنظرة ساخرة وقالت:

- يا له من حرص.. إنه لم يفعل ذلك إلا لإذلالي.. وإذا كان هو يكرهني بهذا القدر، أفلا يحق لي أن أكرهه أيضا..

قالت المربية:

- كنت أظن أنك ستسعين لإرضائه لإيقاظ حبك القديم في قلبه.

زمت «مريم» شفتيها في غضب فقالت:

- لم أعد في حاجة الى هذه المحاولة.

نكست المربية رأسها كأنها تلوم نفسها وقالت:

- كنت أظن أن ما حدث لك قد غيرّك.

قست نظرات «مريم» وتهدج صوتها في عنف:

- نعم.. لقد تغيرت في أشياء كثيرة أعترف بها.. ولكن

مشاعري نحو «منير» لن تتغير أبدا . . ففي حياتي لم يهدد كرامتي ولم يدس مشاعري رجل مثله .

ودق قلبها بعنف عندما نطقت شفتاها اسمه وتخيلته أمامها .

لا تدري لماذا صار قلبها يدق بعنف وتتصاعد الدماء حارة الى وجنتيها كلما تذكرته أو طافت صورته بخيالها . . وما أدهشها أكثر أنه في الأيام القليلة التي مضت كانت تنتابها رغبة ملحة في أن تذهب إليه في شركته وأن تواجهه . . أن تصب عليه جام غضبها وثورتها . . أن تؤكد له تمام حريتها وتسخر من قوته المزعومة .

ولكن ما أدهشها أن غضبها كان يتبدد سريعا ولا يتبقى لديها غير الرغبة في رؤيته وسماع صوته . . ليس ذلك الآن فقط . . بل إنها في لحظات سيطرته عليها وبرغم ارتعادها لمجرد مرآه ، كانت تنتابها لحظات قليلة تتمنى فيها لو أنها رأته أو سمعت صوته مهما أساء إليها أو قسا عليها .

وقطبت جبينها في غضب . . فمن المستحيل أن تكون مشاعرها قد تحولت تجاهه . . إنه قد يكون شابا ناجحا وثريا وطموحا . . ولكن من المستحيل أن تكون قد أعجبت به وهي في قمة انكسارها وضعفها . .

وطوال الليل ظلت تفكر فيما قالته مربيتها . . واكتشفت بالفعل أن ثمة إعجابا خفيا نما في قلبها تجاه «منير» . .

كانت عيناه السوداوان العميقتان مركز جاذبيته . . وكانت قوة شخصيته ذات أسر لا يقاوم . .

وكما قال هو . . فإن هناك من تدمرهم الكارثة . . وهناك من يولدون من جديد من رحمها فيبدأون حياتهم بعدها أكثر قوة . .

وكان هو من الصنف الثاني . . كانت قوته في إرادته . . وهي في حياتها لم تتمن إنسانا أقل جاذبية وقوة شخصية منه . كانت تريد الرجل الذي يخضعها لإرادته حتى وهي في قمة عليائها وترفعها .

وعضت على شفتيها في قسوة ، لحظة أن تذكرت عندما ذهبت إليه لتعلن له موافقتها على عرضه بالزواج منها ، فأجابها في سخرية أن ذلك الأمر بالنسبة له لم يكن ملحا . . كان جرحها لا يزال ينزف منذ تلك اللحظة . . فقد آلمها رده الساخر أكثر من كل الآلام الأخرى كأنها جاءت تبيعه بضاعة أصابها البوار . .

ولكنه كان قد أسدى إليها صنيعا برغم كل شيء . .

تعترف بذلك للمرة الأولى عندما صار بعيدا عنها لا يؤلمها كما كان بجوارها.

وغمغمت لنفسها في ألم: لقد كان شهما برغم كل شيء ولا يمكنني أن أنكر ذلك . . فلولاه من يدري ماذا كان يمكن أن يجري لي في مثل تلك الظروف القاسية؟

وأغمضت عينيها وصداع عنيف يدق رأسها كالمعاول وهي تهمس لنفسها : ولكنني أكرهه برغم كل شيء . . أكرهه ولا أطيق سماع اسمه أو رؤية صورته . . وسأظل أكرهه طوال عمري.

وبقيت طوال الليل مسهدة تتصارع بداخلها عاطفتان متضادتان . .

وفي الصباح امتنعت مربيتها عن الحديث معها . . كانت غاضبة دون شك بسبب حديث الأمس ، فاحتضنتها «مريم» في حنان قائلة: إنني أدرك مشاعرك وأعرف أنني ربما قسوت على «منير» . . ولكن قلبي لحظتها كان مثخنا بالجراح وشعرت أنني أثأر لنفسي من إنسان كرهني وأذلني ، ونسيت كل ما فعله لأجلي.

فسألتها المربية العجوز في حزن قائلة:

ـ كل هذا لأنك امتلكت بعض المال؟ ماذا كنت ستفعلين لو استعدت كل مالك؟

نكست «مريم» رأسها هامسة: أنت لا تدرين كيف انتشلني هذا المال من هوة اليأس . . لقد أعادني الى الحياة مرة أخرى .

واجهتها مربيتها في صرامة قائلة: وهذا الكهل صديق والدك . . هل تظنين حقا أن والدك كان مدينا له بهذا القدر من المال؟

شحب وجه «مريم» وهتفت: ماذا تقصدين؟

استدارت المربية في بطء وأعطت «مريم» ظهرها قائلة: إذهبي اليه واستفسري منه عن الحقيقة .

ارتجفت «مريم» لسماعها تلك الكلمات . . ودوى طنين شديد في رأسها . . وغمغمت في ذهول لنفسها: هل يمكن ألا يكون والدي مدينا لهذا الرجل بهذا المال ، وأنه اخترع تلك القصة لمساعدتي؟

واندفعت كالمجنونة الى عنوان «عابد سالم» . . وكانت تعرفه منذ طفولتها فلطالما ذهبت مع والدها لزيارته في فيلته بالزمالك .

ولكن بواب الفيلا فاجأها قائلا: لقد باع «عابد» الفيلا بعد أن أفلس وحجز عليها الدائنون وهو الآن يقيم في مسكن متواضع في «حي القلعة» .

أعطاها البواب العنوان فمدت أصابع مرتجفة تأخذه منه . .
واستقلت «تاكسي» الى «حي القلعة» . . عندما سألت أحد الجيران عن «عابد» أجابها قائلا: إنه يسكن حجرة وحيدة فوق السطوح.

وصعدت الى السطوح وهي تكاد تجن . . وطرقت الباب بعنف فانفتح بعد لحظة . . ووقف «عابد» لحظة يرمقها في صمت وألم كأنه أدرك سر مجيئها . .

ورمقت «مريم» أثاث الحجرة المتهالك والحوائط الكالحة . .
وأخيرا استقر بصرها على رزمة من المال موضوعة فوق الفراش بدت غريبة عن المكان الغارق في الفقر.

وهمس الكهل يقول لها في صوت مريض: تفضلي يا ابنتي.

ولكنها لم تتزحزح من مكانها وسألته في صوت كأنه خارج من بئر: هل كان والدي مدينا لك حقيقة بهذا المال الذي منحتني إياه.

شاع الاضطراب في عيني الكهل ولم ينطق، وبدا كأنه يرتجف . . وواصلت «مريم» قائلة في سخرية قاسية: لا أظن أن رقة حالك الآن تسمح لك بإعادة مثل هذا المبلغ او حتى امتلاكه.

همس الكهل في ألم: ما الذي جاء بك ولماذا تطرحين أسئلة لا فائدة منها. . أنت كنت في حاجة الى المال وقد حصلت عليه فلماذا تسألين عن مصدره. . إن ذلك لن يفيدك في شيء.

ولكنها دقت الأرض في غضب وعنف وحشي صارخة:

- يجب أن أعرف مصدر هذا المال. . الآن.

كاد الكهل يتهالك لشدة ضعفه ولكن «مريم» أمسكته من كتفيه وهزته في قوة ودون رحمة صائحة به: أخبرني من هو صاحب هذا المال؟

ارتعدت شفتا الكهل، وهمس في صوت مريض: إنه «منير عزيز». . وقد طلب مني ألا أخبرك بالحقيقة أبدا.

وكان مشهد رزمة المال الموضوعة فوق فراش الكهل يفسر بقية الأمر.

اعتراف

وفوجئ «منير» بها .

كانت قد طرقت باب الفيلا وفتحه لها الخادم العجوز الذي طردته في مهانة واحتقار من قبل دون شفقة . . وبدا على الخادم كأنه حصل على ترضية مناسبة فعاد الى عمله مرة أخرى . . ورمقته «مريم» وقد أصابها إحساس عميق بالخجل ولكنه واجهها بنظرة تسامح وأشار إليها أن تدخل . .

واتجهت نظراتها على الفور تجاه «منير» . . كان جالسا غارقا في الصمت والأفكار في الصالة العريضة الى أن تنبه الى أنها تقف أمامه حاملة في يدها حقيبة سوداء متوسطة وهي ترمقه بنظرة حزينة متألمة كأنها تغالب دموعاً حبيسة .

ومدت إليه الحقيبة السوداء قائلة في صوت جريح : لقد جئت لأعيد إليك مالك . . فلا يمكنني أن أقبله أبدا .

حدق فيها «منير» في دهشة بالغة وقال: هل عرفت؟

نضح صوتها بالألم وهي تجيبه: لقد ذهبت الى «عابد سالم» وأصررت على معرفة الحقيقة فأخبرني بها وكيف أنك أقنعته ببعض المال لكي يأتيني بهذا المبلغ ويخترع تلك القصة عن دين والدي له لكي أقبل هذا المال وأبدأ به حياة كريمة.

ضاقت عينا «منير» وبدا أنه تلقى لطمة غير متوقعة.. كانت عيناه تبدوان جريحتين متألمتين وقد غادرتهما تلك القوة الطاغية والنظرة الآمرة المسيطرة.

وهمس يقول لها مستعطفاً: إن هذا المال لك فخذيه.

فأفلتت أصابعها حقيبة النقود وهي تجيبه في صوت بلا مشاعر: شكرا لك.. ولكنه ليس مالي.. وأنا لا أستطيع أن أقبل إحسانا من أحد.

وتمالكت نفسها وبدا كأنها تستمد قوتها من شيء مجهول لكي تضيف: لقد أعدت بيع شقتي وأثاثها وتمكنت من أن أجمع نفس المبلغ مرة أخرى لأعيده لك حالما عرفت الحقيقة.

راقبها «منير» في صمت وألم.. كانت ملامحه تشي بمعاناته وعيناه تنطقان بها.. وخلت أنفاسه من أي رائحة للكراهية كأنه تحول الى مخلوق آخر.

وكانت مريم واقفة أمامه ترتجف وهي تغالب إرادتها حتى لا تتهاوى أمامه. . ورأسها منكسة لا تقدر على رفعها لمواجهته كأنها أضعف من أن تفعل ذلك. . وهمست تقول في ألم: إنني حقيقة لا أستطيع إلا أن أشكرك لكل ما فعلته لأجلي، فقد كنت إنسانا نبيلا بحق ولا يسعني غير الاعتراف بذلك.

عضَّ «منير» على شفتيه في قسوة قائلاً: أنا لم أفعل لأجلك شيئا. . لقد كنت تستحقين كل ذلك وأكثر منه.

أصابتها دهشة أقرب إلى الذهول وقالت: أنت الذي تقول ذلك بعد كل ما فعلته بك. . لقد ظننت أنك صرت تكرهني أكثر من أي شيء في العالم بعد كل الأذى الذي نالك مني.

قال كأنه ينتزع الكلمات من شرايينه:

ـ كانت كراهيتي قناعا لأجل أن أتمكن من مساعدتك دون أن ترفضي هذه المساعدة. . فقد كان مستحيلاً عليَّ أن أتركك تغادرين مسكنك لتتلقفك ذئاب الطرقات. . ولم تكن قسوتي عليك ومحاولتي كسر غرورك إلا لكي لا تشكي في أمري، ولأجل أن تتغيري وتتخلصي من أشياء كثيرة كانت تكدر جمالك النبيل وتسيء إليك.

راقبته «مريم» في ذهول دون أن تعي كل ما يقوله، كانت

كلماته مفاجأة غير متوقعة أصابتها في الصميم . . وواصل «منير» في صوت متهدج: لقد أصررت أن أكون بجانبك لكي أصبح مثل صمام الأمان بالنسبة لك ولأحميك من الضياع، واضطررت الى تمثيل دور القاسي الذي جاء يسعى للانتقام لكي أضمن سيطرتي عليك . . وعندما لم أعد أستطيع الاستمرار في أداء هذا الدور اخترعت تلك القصة عن دين أبيك لأمنحك مبلغا تعيشين به حياة كريمة دون أن أخدش مشاعرك، ولأنني كنت واثقا أنك سترفضين قبول هذا المال لو أنني منحتك إياه بنفسي.

غمغمت «مريم» في ذهول: مستحيل . . إنني لا أكاد أصدق ما أسمعه . . أنت فعلت كل ذلك دون أن أعرف الحقيقة؟

واجهها «منير» بوجه يقطر ألما:

ـ هذه هي الحقيقة بعينها، وكنت أتألم وأتمزق وأنا أمثل دور الشخص المنتقم . . ولكن لم يكن أمامي غير تلك الوسيلة لكي أبقيك بقربي . . وحتى عرضي بالزواج منك كان مجرد حيلة لإقناعك بالبقاء في الفيلا . . ولكنني لم أستطع تنفيذه أبدا لأنه كان من المستحيل بالنسبة لي أن أتزوجك رغما عنك

وأنت كارهة لي . . كان من المستحيل أن أتزوجك في صفقة مهما كان ثمنها، فأنت أغلى عندي من العالم كله . . والموت أهون لدي من أن تشعري أنني أرغمتك على زواج تكرهينه .

شعرت «مريم» أنها توشك أن تتهاوى . . وتساندت على الحائط وهي تسأله في صوت مبحوح: لماذا فعلت كل ذلك . . لماذا؟

فأجابها بصوت مريض كأنه يهرب من سبب علته: ألم تكتشفي السبب بعد . . إنني لا أزال أحبك . . وسأحبك طوال عمري .

صرخت بلا وعي:

ـ مستحيل . . مستحيل أن تظل تحبني بعد كل ما فعلته بك .

هز «منير» رأسه بمشاعر دامية مغمغما :

ـ لا يملك الإنسان منا من أمر قلبه شيئا . . وأنت برغم كل ما فعلته بي لم أنقم عليك وأدركت أن الخطأ كان يرجع الى الاسلوب الذي نشأت فيه وجعلك تتعاملين مع العالم كله من منطق التعالي وعدم الإحساس بالآخرين . . ولهذا قررت أن أبدأ من جديد دون أن أسمح لنفسي بأي مشاعر كراهية ضدك . . وكافحت وشقيت لأمتلك مالا كثيرا ولم أكن أظن

أن القدر سيتيح لي تلك الفرصة الذهبية بانهيار مشروعك لكي أقتحم حياتك مرة أخرى بتلك الصورة .

نهنهت «مريم» بالبكاء وارتجف جسدها دون أن تنطق وأغمض «منير» عينيه متألما وواصل: وحتى هذه الفيلا يوم اشتريتها في المزاد العلني ، أسرعت في اليوم التالي بتسجيلها باسمك دون أن تعرفي ذلك . . فما كنت أسمح لنفسي بانتزاع شيء كان ملكك يوما ما . . وكنت أنوي أن أخبرك بذلك في الوقت المناسب لحظة أن أغادر فيها «مصر» بأكملها وأعيش خارجها فلا تستطيعين رفض امتلاك الفيلا أو معارضة إرادتي . . وحتى ذلك المهندس القعيد ورجل الأعمال اللذان رفعا القضايا ضدك أمكنني إقناعهما بالتنازل عنها مقابل بعض المال ، مهما كثر فهو قليل في مقابل سلامتك وطمأنينتي عليك .

علا صوت «مريم» في نحيب مكتوم . . وهمست تقول في مرارة: أنا لا أستحق كل ما فعلته لأجلي . . صدقني أنا لا أستحق كل هذا الحب .

ولكنه أجابها في صوت متهدج مرتعش:

ـ أنت لا تدرين كيف أحبك . . فأنت عندي الحياة

ذاتها. . ولحظة أن غادرت الفيلا وقلت لي أنك تكرهينني كانت أقسى لحظة في حياتي. . كأنك ذبحتني وتمنيت الموت لنفسي وقتها ولكن هيهات.

ورفع إليها عينيه تكسوهما الدموع وهو يضيف هامسا: ولكن كان يكفيني حتى وإن كرهتني. . أنني منحتك الفرصة لكي تعيشي في أمان ولا تهدر كرامتك بعد ذلك أبدا. . وأنني حميتك في الوقت المناسب من كل الأخطار التي كانت ترصدك.

أخفت «مريم» وجهها بين كفيها وهي غارقة في الدموع وكل جزء في جسدها يرتعد. . وتحرك «منير» صوب الباب المفتوح قائلا: سوف أغادر هذا المكان و«مصر» بأكملها للأبد. . ولن تجبرك قوة في العالم بعد الآن على التطلع الى وجه انسان تكرهينه.

ولكن مريم صرخت في لهفة واندفعت نحوه تمسكه من ذراعيه في لهفة ووجهها مغسول بالدموع، وهمست تقول له: لا تتركني. . أرجوك. . فإنني لن أستطيع العيش بدونك أبدا.

هز «منير» رأسه في مرارة قائلا:

- صدقيني، لن تفيد كلمات الشفقة في شيء. . فأنا وأنت

قطبان يستحيل أن يتجاذبا أبدا . . إننا من عالمين مختلفين محال أن يتلاقيا .

همست في شجن تقول له: أنت لا تعرف الحقيقة .

سألها في ألم:

ـ أي حقيقة؟

أجابته و كل جزء فيها يرتعد:

ـ أنا أيضا أحبك .

فاجأته عبارتها . . زلزلته كلمتها الأخيرة . . خيل أنه توهمها . . تخيلها . . ولكنها واصلت في صدق: لقد أحببتك منذ اللحظة التي آمنت فيها أنك أنقذتني من الضياع ومنحتني سببا جديدا للحياة . . أحببتك لحظة أن عرضت عليّ تلك الصفقة بأن نتزوج . . لحظتها كان ثمة شعور داخلي أتمنى به لو أن تلك الصفقة تمت وأننا تزوجنا . . صدقني كنت لحظتها أشعر أنني سأتزوجك بكامل إرادتي ورغبتي . . ولكن كبريائي حتى في قمة لحظة انكساري كان يدفعني لعدم الاعتراف بذلك ، و كنت أخدع نفسي وأقول لها إنك تسوقني ذبيحة في مذبح كراهيتك . . وحتى عندما صرخت في وجهك بأنني أكرهك ، كان كل جزء في جسدي يرفض تلك الكلمة ويتمنى لو نطق بعكسها . . ولكن

أنانيتي حتى تلك اللحظة كانت تصور لي عكس مشاعري.

وحدقت في عينيه الآسرتين الحبيبتين وهمست تقول في شجن: إنني لو عشت عمري كله أهبك من الحب أنهارا فلن يكون ذلك مساويا قطرة من حبك لي.

وأشارت إلى أركان من الصالة الواسعة حولها قائلة: وهذا المكان إن لم يحتونا فلن أطأه بقدمي بعد الآن.. فإنه سيذكرني في كل لحظة أنني أضعت من قلبي الإنسان الوحيد الذي أحببته.. وكل مال هذا العالم لن يعوضني هذا الحب.

حدق فيها «منير» ذاهلا غير مصدق ما يسمعه.. وارتعدت شفتاه وعيناه ترقصان ببهجة لا مثيل لها.. ومد أصابعه يتحسس شعرها الذهبي في وله.. كبحّار غريق شردته العواصف والأنواء قبل أن تلقي به الرياح الى شاطئ الأمان والنجاة.

ومست «مريم» أصابعه القوية بكفها الصغيرة الدافئة..

وأمالت رأسها فوق كتفه وهي تغمض عينيها وإحساس عميق بالهناء يطوقها.. في الوقت الذي ارتفعت فيه زغرودة طويلة مبتهجة من المربية العجوز الطيبة.. وقد بدا أن كل جزء في المكان.. قد عاد يشعر بمذاق السعادة من جديد.

الفهرس

لا تتركني وحدي

وُلدت «مريم» وفي فمها ملعقة ذهبية..

وتوفي والدها تاركاً لها الملايين.. ولكنها أضاعت كل ما تملك بتهورها وطيشها. وصارت لا تجد حتى المأوى..

ومن قلب المأساة تقدم «منير» ماداً يد المساعدة لها.. كان هو حبيبها السابق الذي لفقت له التهم ودمرت مستقبله.

وكانت واثقة أنه ما جاء إلا لإذلالها والانتقام منها.. فهل تقبل يد المساعدة منه.. وكيف سيكون انتقام الحبيب السابق؟

دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

36

ila